مجموعة قصصية

ميلاد جديد

حنان لحّام

182 65

Med Abdou 05:11 2014/01/10 صباحاً

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته
استأذنكم سيدتي الكريمة في تصوير مجموعتكم القصصية "
ميلاد جديد " و نشرها على الإنترنت
و شكرًا

13 يناير

حنان لحام 06:56 2014/01/13 مساءً

وعليكم السلام ..كما تريد سيدي وجزاك الله خيرا

ميلاد جديد

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

الطبعة الثانية

دار الثقافة للجميع
رقم الإيداع ٥٠١٦

مجموعة قصصية

ميلاد جديد

حنان بحّام

الإهداء

إلى شباب العالم الاسلامي الذي بدا يستفيق من إغفاءته..

واخذ يتلفت محاولاً كشف الطريق الصحيحة بين المتاهات ..

إنه يخطو إلى الأمام ..

فيتقدم تارة نحو غايته .. ويزل اخرى ..

ويقوم من عثرته ليتلمس طريقه من جديد ..

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشدا » .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات اعمالنا ..

وبعد .. فهذه لقطات سريعة وقصيرة حاولت أن أصور فيها بعض المتاعب التي تعترض الشباب المؤمن والفتاة المؤمنة في مجتمع قد طال بعده عن اصالة القرآن ومقاييسه ..

وهكذا يجد الشباب المؤمن أنفسهم مضطرين إلى الكد والمعاناة لشق طريق جديدة في الفهم والسلوك .. كي لايطفى عليهم المجتمع بمقاييسه الواهنة التي تقف في وجه كل بادرة نمو او تقدم ..

وشق الطرق الجديدة يحتاج إلى وعي كبير .. ودقة في التجرد عن الهوى والنظر الذاتي .. وجرأة على الإقدام .. وفهم لقوانين نمو الحياة إلى درجة تمنح الثبات لسالكها امام سخرية الهازئين العابثين .. والناصحين الجاهلين ..

وفي ثنايا هذه المتاهات التي نعبرها .. تغمرنا ظلمات الجهل والهوى أحياناً ، فنضل عن الصراط المستقيم وتنزلق أقدامنا نحو قيعان الشوك فتدمى أقدامنا وتكلّم قلوبنا ..

ونصحو على العتاب الرباني « قل هو من عند أنفسكم » وندرك مغزى قولـه تعالى : « يريد الله أن يخفف عنكـم وخلق الانسان ضعيفاً » .. ونرفع أبصارنا نحو السماء بانكسار .. فينثال علينا فيض من الرحمة الإلهية .. « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » .

فيا من زلت به القدم في بحر الشوك .. قم واكشف موضع خطئك وتب إلى الله وصحح مسارك .. فإن الله يناديك ويعدك على ذلك أن يبدل سيئاتك حسنات : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم . » .

اجل..سيكتب لك أجر على خطئك وتوبتك..فقد قدمت العبرة لمن حولك وكنت لهم كبش الفداء .. « فاعتبروا يا أولي الأبصار ». وتأملوا في صفحة واحدة من صفحات التاريخ الجليلة : إنه يحدثكم عن الملك « فيليب المقدوني » على انه واحد من أولئك الملوك القليلين ـ في التاريخ ـ الذين عنوا بخلفهم.. فكانت عنايته بابنه « الاسكندر المقدوني » شديدة .. لقد تعهده منذ صغره بالإعداد ليكون حكيماً جديراً بالملك . وجاءه بحكماء عصره من امثال أرسطو فكانوا يعلمونه

ويشرفون على تربيته .. ومع ذلك فقد اظهر الاسكندر بعد ذلك الواناً من سوء السلوك والقسوة والغرور .. فكم من قرية دمرها عن بكرة ابيها اثنـاء فتوحاته ، وكم من المجازر وأعمال التنكيل سجلهـا التاريخ ضده .. حتى ليستغرب القارىء لِمَ لَمْ تثمر جهود أبيه فيليب في رعايته ..؟! يعود التاريخ ليقول لنا : إن حياة «الاسكندر» كانت تخالطها شخصية امراة قلقة شريرة لا يستقر لها قرار.. إنها أمه .. لقد كانت بارعةالجمال.. وابنة احد الملوك.. لكن عقلها كان مشحوناً بالشر والخرافة .. وكان الاسكندر متعلقاً بهـا ...

فتاملوا كيف يضم التاريخ شهادته إلى شهادة القرآن :

« ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » .

تلك هي شهادة واحدة من شهادات التاريخ الكثيرة التي تنتظر منا اذناً واعية .. « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم .. » .

نسال الله تعالى أن يعيننا حتى نخرج من الظلمات إلى النور بإذنه . وأن يهدينا لأقرب من هذا رشداً .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

دمشق ١ ذو القعدة ١٣٩٩ هـ
٢٢ ايلول ١٩٧٩ م
حنان لحام

- ١ -

أوهن البيوت

ـ أريد فتاة رائعة تناسب ولدي سالماً ..

وتابعت أم سالم حديثها معي ووجها يطفح بالبشر والاعتزاز:

« سالم » ـ كما تعلمين ـ شاب مثالي تخرج من كلية الهندسة بتفوق وبدأ يمارس عمله ويبني مستقبله .. متمسكاً بدينه مستقيماً في خلقه .. يشهد له أهل الحي وكل معارفه بأنه قد جمع الدين والدنيا .. صحيح أنه لايملك الآن الكثير .. لكن مستقبله عظيم وطموحه كبير .. وما أسعدني الآن وأنا أبحث له عن عروس تناسبه وتشاركه حياته ..

وسكتت أم سالم قليلاً تهدىء نفسها وتمسح دموع الفرح التي فاضت من عينيها .

قلت وقد هزتني مشاعرها :

ـ هنيئاً لك أيتها الأم .. وقد قرت عيناك بولدك شاباً صالحاً متفوقاً في الدنيا والآخرة بإذن الله .. وأرجو الله أن يتمم فرحتك بعروس مؤمنة جديرة بولدك ..

قالت :

ـ ولكنني عاتبة عليك ..

قلت باستغراب :

ـ ولم يا خالة ..؟

ـ لأنك لاتساعدينني في هذه المهمة .

فتأملتها باسمة .. ثم قلت :

ـ ولكنك تعرفين من أعرف من الفتيات المؤمنات ..!!

ـ من تقصدين ..؟!

ـ فاطمة مثلاً .. إنهـا مداومة على جلسات القرآن .. وتتحدى كل العقبات في سبيل طاعة الله ورسوله ..

فظهر الامتعاض على وجه أم سالم وقالت مستنكرة :

ـ إن عمرها اثنان وعشرون سنة..وإبني لم يتجاوز الرابعة والعشرين ..!! لا .. لا .. إنها كبيرة السن .

ـ حسناً.. هذه رباب أصغر منها سناً وهي تتقن الخياطة.. ومن أسرة طيبة ومتواضعة .

ـ ولكنها غير متعلمة .. لم تتجاوز في دراستها المرحلـة الاعدادية .. وهو يحب أن تكون مثقفة تفهم عليه ..

ـ فما رأيك فيعائشة ؟ إنها تتابع دراستها فيالمرحلةالثانوية.

ـ أوه .. عائشة صحيح أنها جذابة ولكنها سمراء ..

ـ و سمية .. ؟!

ـ سامحك الله .. إنها قصيرة ..!!

فقلت وأنا أحاول كظم غيظي :

ـ وأنت أيضاً سامحك الله يا خالة .. ألا تذكرين يا خالة قوله تعالى :

« ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم » .

انقبضت أسارير وجه أم سالم وقالت باستنكار :

ـ سبحان الله .. ومن قال إنني أريد مشركة ..؟! أريدها فتاة رائعة مؤمنة يتوفر فيها الدين والدنيا ..

قلت : وتقصدين بالدنيا أن تكون جميلة .. بيضاء .. طويلة وصغيرة السن ومثقفة ..؟!

ـ إن سالماً يستحق كل خير ..!!

ـ آه .. تذكرت .. ما رأيك في هالة ..؟

فظهرت الخيبة والحسرة على وجهها وهي تقول :

ـ ممتازة .. ولكن يا للأسف .. لقد رفض أهلها طلبي بحجة أن الفتاة تريد إكمال دراستها .. ولكنني عرفت السبب الحقيقي لرفضهم .. مسكينة هالة .. إنها كالوردة الطاهرة في حقل من الشوك .. إن أهلها ماديون متعجرفون ..

ابتسمت وقلت وأنا أجهد في كظم رغبتي في المزاح :

ـ يبدو أنهم وجـدوا أن ابنك لاتتوفر فيـه الشـروط الدنيوية ..؟!

هزت أم سالم رأسها بأسف وقالت :

ـ لقد قال لي بعض معارفهم : إن هؤلاء لايزوجون إلا لمن يقدم بيتاً وسيارة ومهراً لائقاً .. ثم إن ابني لم يؤد خدمة العلم بعد ..

ـ أرأيت يا خالة .. إن ابنك أيضاً غـير مستوف للشروط الدنيوية عند الناس .. فلا بد أن تتنازلي عن شيء من شروطك الدنيوية ..

قالت بأنفة وحِدّة :

ـ لا .. إن سالماً يستحق كل خير .. وسأبحث له حتى أجد مايعجبه ويعجبني .. قلت وقد شعرت بأنها امتعضت مني :

ـ آسفة يا خالة .. لم أرد مسّ كرامتك .. ولكننا بشر.. ومن منا يعتبر كامـلاً منزهـاً عن النقائص ..؟ ولكن نقصاً في الدين ليس كنقص في الدنيـا ..

« إن اكرمـكم عنـد الله اتقاكـم » .

قالت وهي تهم بالانصراف :

ـ معك حـق يا ابنتي .. ولكنه قلب الأم يأبى أن يرى العيوب .

ـ أتمنى أن تجدي مطلبك .. ولكن يـا خالة .. إن لم تجدي الجانبين مجتمعين في فتاة واحدة .. فبأ يجانب تضحين..؟ هل تتنازلين عن شيء من الدنيا ..؟! أم عن شيء من الدين ..؟

قالت بعد تأمل :

ـ إن سالماً قوي الدين .. قوي الشخصية .. يستطيع أن يهديها ويعلمها إن لم تكن متدينة ..

ولم أتمالك نفسي فهتفت بها :

ـ يا للكارثة إن لم يفلح معها ..!! ولا تنسي يا خالة أن رسول الله ﷺ لم يستطع أن يهدي عمه أبا طالب مع شدة حرصه على ذلك حتى قـال الله تعالى له :

« إنك لا تهـدي مـن احببت .. » .

ـ سبحان الله .. يسروا ولا تعسروا .. إن سالماً مخلص وطيب وسيعطيه الله بحسب نيته ..

قلت بيأس :

ـ أرجو ذلك ..

وافترقنا بعد ذلك ..

ومضت أيام وشهور .. وفوجئت بها يوماً تزورني والبشر يتلألأ في وجهها .. وابتدرتني قائلة :

ـ لن أشغلك كثيراً بزيارتي المفاجئة لأنني على عجل من أمري . إذ لابد لي من إكمال الاستعدادات للزفاف ..

هتفت بسرور :

ـ الزفاف ..! زفاف سالم إن شاء الله ..؟!

فأومأت برأسها موافقة وقد حبست دموع الفرح لسانها ..

واستثيرت مشاعري ووجدتني أبكي معها وأردد :

ـ الحمد لله .. هنيئاً لك يا خالة .. اللهم تمم بالخير .

قالت بتأثر :

ـ أسعدك الله بأولادك حين يكبرون وتفرحين بتزويجهم..

ومدت يدها إلي ببطاقة دعوة أنيقة وقالت :

ـ لابد من تشريفك لنا بحضور الحفلة .

تناولت البطاقة مسرورة وقلت :

ـ كم يسعدني ذلك . ونظرت إلى البطاقة ألتهم سطورها :

آه .. الآنسة سهير .. اسمها جميل ..

قالت : وهي أجمل ..

وتابعت مع السطور :

وذلك في تمام الساعة التاسعة من مساء الخميس ...

ـ آسفة يا خالة .. إن هذا الوقت لا يناسبني ..

قالت باستغراب :

ـ كيف لايناسبك ..؟ وكل الأعراس تجري عادة في مثل هذه الساعة ؟!

ـ إن بدأت الحفلة في التاسعة فمتى تنتهي ..؟!

ـ الليل طويل .. والرب كريم .. على كل حال لن نسمح لك بالانصراف قبل الثانية عشرة على أقل تقدير ..

ـ أعوذ بالله .. أعود في منتصف الليـــل إلى البيت ..؟! وكيف أترك زوجي وأولادي وهم بحاجة إليَّ في هذا الوقت ! وأعرض نفسي لضياع صلاة الفجر ..؟! آسفة جداً وأرجو أن تقبلي اعتذاري يا خالة ..

قالت بأسف :

ـ هكذا إذن ..؟ كم كنت أود لو تشاركيننا وتتعرفين على عروسنا ..

قلت بلهفة :

ـ حقاً .. إنك حتى الآن لم تحدثيني عن عروسكم سهير ..

قالت مغتبطة :

ـ إنها فتاة رائعة الجمال .. في عمر الورود .. عمرها ستة عشر عاماً .. وقد تساهل أهلها معنا كثيراً .. تصوري أنهم قالوا : لانريد مهراً .. إن سالماً شاب مستقيم وله مستقبل باهر ..

قلت باعجاب :

ـ عظيم .. ألم يشترطوا شيئاً ..؟!

ـ طبعاً لابد من الحلي .. وإلا سقط اعتبارنا أمام الناس..

وتنهدت قائلة :

ـ وكما تعلمين الذهب في غلاء مستمر .. لقد كلفتنا حلي العروس عشرة آلاف ليرة ..

قلت باستنكار :

ـ عشرة آلاف ..؟!

ـ إنها ثمن خاتم ماسي للزواج وسوار وعقد لائقين .. وهذا أقل ما يمكن .. ماذا تفعل يا بنيتي .. هل تترك الناس تلوكنا بألسنتهم وتتهمنا بالبخل ..؟! ولقد كان حظنا عظيماً أن جمعنا الله بعائلة محترمة لاتقيم للمادة وزناً .. لقد قال والد العروس لسالم:لا أريد منك مهراً ولكن جهز بيتك بما يليق بك..

قلت وأنا أحاول كتمان ضيقي :

ـ وكم كلفكم تجهيز بيت سالم الشاب المؤمن الذي نذر نفسه لله ..؟

وتنهدت مرة أخرى وقالت :

ـ لا أكتمك يا ابنتي أن الحال عسير .. وقد اضطر سالم أن يستدين من معارفه عشرين ألف ليرة ..

واستدركت أم سالم موقفها وعادت تقول بتفاؤل :

ـ ولكن سهير فتاة (لقطة) .. وسالم قادر على أن يجد في عمله ويسدد الديون .. إنها فرصة العمر .. ولا بد للانسان أن يضحي من أجلها بالمـال والجهد ..

كنت أستمع إليها واجمة وقد فارقتني فرحتي وابتسامتي وتابعت تقول :

ـ وهكذا تم العقد بدون مهر متقدم .. على أن يكون المهر المتأخر عشرين ألفاً ..

ولم أتمالك نفسي أن هتفت :

ـ الله أكبر .. عشرون ألف متأخر ..؟! إن هـذا لايبشر بخير ..

قالت معترضة :

ـ لا .. لا .. إن المتأخر لاقيمة له أبداً .. والناس كلهم يكتبون مثل ذلك .. إنها أمور شكلية لا قيمة لها .. إن سهيراً وسالماً سيسعدان في حياتهما ولن يفكرا في المتأخر أبداً ..

ـ ولكن لم تحدثيني عن الفتاة .. عن دينها وخلقها ..؟!

ـ لديها استعداد طيب .. صحيح أنها (دلوعة) ومتعلقة بالموضة ولكنها صغيرة ولا تعرف شيئاً عن الاسلام ..

قاطعتها مستنكرة :

ـ لا تعرف شيئاً عن الإسلام ..؟! سالم الداعية المؤمن .. كيف سيعيش مع امرأة لاتعرف شيئاً عن الاسلام ..؟!

قالت بثقة واطمئنان :

ـ لا تخافي عليه يا ابنتي .. إنه يحاول تغييرها منذ أيام الخطبة .. بل إنه تحدث مع أبيها قبل العقد بأنه يريد منهـا أن تصلي وتتحجب فلم يمانع .. وغداً عندما يتم الزفاف تتعلم .. وتتغير أوضاعها .

كان قلبي يعصره الألم ولم أفلح في ضبط مشـاعري .. فخرجت الكلمات من فمي مفعمة باليأس والأسى :

ـ إن شاء الله .. اللهم تمم بالخير ..

وانصرفت أم سالم .. ومرت أيام قبل أن يبتعد الموضوع عن ذهني .. كنت أتمنى على الله أن أكـون واهمة في مخاوفي وتوقعاتي وأن ينجح سالم في حياته الزوجية .. ومن يدري لعلها تهتدي ..

و « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » ..

ولكن لم أستطع أن أمحو من قلبي مرارة الخيبة في المسلمين.. إنهم حتى الآن لايقدرون ذات الدين حـق قدرها .. تلك التي قال عنها رسول الله ﷺ :

« فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

ولم أستطع أن أنسى ..عشرون ألفاً من الليرات .. ماعدا تكاليف الاحتفالات ..!! يا إلهي كم من مشروع لخدمة المسلمين كان يمكن أن ينعشه مثل هذا المبلغ ..؟! ولكن رحماك يارب .. فمن من المسلمين يبذل في سبيل الله مثل هذا المبلغ ولو لم يرضخ تحت الديون ..؟!

ودارت الأيام .. وشعرت بأن من واجبي زيارة أم سالم لتهنئتها .. ولو لم أكن منشرحة لذلك ..

كنت أطرق الباب وأنا أتساءل عن مصدر تلك الموسيقى الغربية الصاخبة.. واستقبلتني أم سالم بحفاوة بالغة .. وعاتبتني على تأخري بزيارتها .. واعتذرتُ .. ثم قلت وقد تأكدت أن الموسيقى تصدح من داخل البيت :

ـ كيف حال عروسكم ..؟

ظهرت على وجه أم سالم سحابة من الغم والكآبة وهي تقول :

ـ الحمد لله إنها بخير . .ولكن كما تسمعين إنها لاتفارق المذياع إلا إلى جهاز التسجيل .. تحب الغناء والرقص .. وتقضي معظم نهارها في الشرفة تتحدث مع بنت الجيران .. إنها صغيرة وجاهلة .. لاتعرف حقوق البيت والزوج .. ولا تعرف الحلال من الحرام .. آه .. كم يزعجني هذا المذياع . .لم أعد أعرف كيف أسبِّح ربي ..!!

ـ وكيف حال سالم ..؟!

ـ سالم مـلاك في هدوئه وصبره .. وهو يحاول تغيير طباعها .. حدثها عن الصلاة كثيراً .. لكنها لاتصلي إلا أمامه .. حدثها عن الحجاب وجاءها بخمار فنفرت ورفضت أن تلبسه .. وتشبثت برأيها .. فانتهى به الأمر إلى أنه حرم عليها الخروج من البيت ما دامت بدون حجاب .. فاحتج أهلها وثارت أمها وقالت :

ـ ما هذا التعصب ؟! نحن لم نزوج ابنتنا كي تحبس في البيت وتحرم من متاع الحياة .. ألا يكفي أن سالماً لم يهيىء لها وسائل اللهو والتسلية في البيت .. فلا تلفزيون .. ولا مجلات «سمر» و«حواء» و«الشبكة»!! ولا قصص «إحسان عبدالقدوس»؟! ألا يكفي أنه لايسعدها باصطحابها إلى السينما والمسرح كما يفعل الأزواج مع عروساتهم ..؟ وكل ما تسمعه ابنتي من زوجها سالم ـ في الصباح والمساء ـ هذا حرام فاتركيه .. وهذا عيب فلا تفعليه .. وهذا فرض التزمي به ..؟!! لا .. إنه وضع لايطاق .. أنا لن أسمح له أن تدفن ابنتي في الحياة ..

قلت بأسى :

ـ سبحان الله ما أسرع ما ظهرت المتاعب يا خالة ..

سكتت أم سالم وتأملتني برهة .. ثم استدركت قائلة :

ـ ولكن لاتخشي شيئاً فإن سالماً سيكسب الجولة في النهاية إن شاء الله .. لقد عرف كيف يضع حداً لتدخل أهلهـا بلباقته

وحزمه .. وهـذه المتاعب لابد منهـا في البداية ريثما يحدث الانسجام والتفاهم .. والحياة كلها هكذا .. وأي البيوت تخلو من المتاعب ..؟!

وعاد الاشراق إلى وجه أم سالم وأطلت البسمة من عينيها وهي تقول :

ـ ثم إنني سأصبح جدة بعد أشهر .. يا إلهي مـا أسرع مادارت الأيام وكبرت حتى صرت جدة .. وما أسعدني حين أرى ابن سالم يناديني (نانا) ..

قلت وأنا أتظاهر بالبشر :

ـ أحقاً يا خالة ..؟ الحمد لله ..

نهضت قائلة :

ـ سأنادي سهيراً لتتعرف عليك .. وعسى أن تستفيد من حديثك .. وأرجو أن تحدثيها عن طاعة الزوج وتشجعيها على الحجاب ..

وأردت أن أحتج .. ولكن أم سالم خرجت قبل أن تسمع احتجاجي .. وحمدت الله لأنها كانت فرصة لي كي أهدىء من ثائرتي .. وإلا فقد كنت أنوي أن أقول لها :

ـ دعي الأمر لعبقرية سالم .. فإنه إنسان فـوق العـادة (القانون) يتحول العفن بين يديه إلى إبريز خالص ..!!

وعادت أم سالم ومعها سهير .. العروس الجميلة الرشيقة.. قدمت لها تحيتي وتهنئتي .. فردت بفتور .. وكنت أتأملها باسمة بينما كانت أم سالم تتولى تعريفها عليّ :

ـ إنهـا أم عبد الرحمن سيدة مؤمنة تدرس وتعلم الناس القرآن .. لو تسمعين حديثها وتحضرين درسها لسعدت كثيراً ..

لم تعلق سهير واستمرت ترمقني بين الفينة والأخرى بنظرات التحفظ وعدم الارتياح ..

كانت تلبس ثوباً فاضحاً يتناسب مع آخر صيحات الموضة.. ولم تنس مجموعـة الألوان التي تفرضها (تقليعة) الموسم على شعرها ووجهها .. وكنت أتساءل في أعماقي : أهذه جميلة ..؟

أي انحراف طرأ على ذوق الشباب المسلم حتى صار يقتنع بالقشرة ولا يهتم باللباب ..؟!

أين حلاوة النفس التي تشع وداً وأنساً مـن عيني الفتاة المؤمنة ..؟!

أين منها حياء المؤمنة يتفجر متوهجاً في خديها ..؟!

أين أدب المؤمنة يتجلى في حسن حديثها ولطفها ..؟!

أين بساطة المؤمنة واستعلاؤها على زخارف الدنيا ..؟!

أين العفاف والتقى ..؟! أين الفهم والوعي ..؟!

أين .. أين .. تلك التي قال عنها رسول الله ﷺ :

« من إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها اطاعتك ، وإذا أقسمت عليها أبرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك »..

أيها المؤمن ! قد ضحيت بكل هذا في سبيل قشرة ملونة ..؟! فوا أسفاه ...

وإذ وجدتني أزداد ألماً وانقباضاً .. بادرت مستئذنة .. فاعترضت أم سالم قائلة :

نسيت أن أقول لك : إنني مسافرة إلى عمان في أوائل الشتاء مع أبي سالم في مهمة تتعلق بعمله تستغرق طيلة الشتاء وقد لا أراك بعد الآن .. فلمَ تستعجلين الانصراف ..؟!

ـ أحقاً ..؟! أتمنى لك رحلة موفقة . وأرجو أن تعذريني فلا بد من الانصراف لمشاغلي ..

ـ لك عذرك يا ابنتي .. ولكن أرجو ألا تنسي سهيراً من ودك وإيناسك أثناء غيابي ..

ـ آسفة جداً يا خالة .. فقد لا يتاح لي ذلك ، وأنت تعرفين كثرة مشاغلي .. وسأحاول . أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم ..

وبعد مدة .. علمت أن أم سالم قد سافرت مع زوجها .. وحل الشتاء .. وكنت أسمع بين الحين والآخر تنفاً من أخبار

سالم وزوجته .. سمعت مرة أن الجيران تتأذى من شجارهما المستمر .. وسمعت في أخرى أن سهيراً قد خرجت إلى بيت أهلها غاضبة ساخطة .. ثم تدخل (أولاد الحلال) فأعادوا الأمور إلى مجاريهـا ..

وفوجئت بها مرة تدخل علينا في إحدى جلسات القرآن فلم أعرفها للوهلة الأولى.. كانت ترتدي خماراً ومعطفاً ضيقاً وطويلاً وعطرها يملأ المجلس بشذاه .. ووجهها ملطخ بالألوان . .

رحبت بها وفهمت منها أن سالماً قد جاء بها إلى مجلسنا علّها تستفيد .. حاولت أن أبذل لها الحب والأخوة .. ولكن كانت هي في واد ونحن في واد آخر ..

وحدثتني جارتها مرة عنها وعما يعانيه سالم من عدم اهتمامها ببيتها وزوجها .. ومن تبذيرها وطلباتها التي لاتنتهي .. مسكين سالم إنه يكد نهاره وسحابة من ليله كي يتمكن من تسديد الديون وتلبية الطلبات .. ويرجع إلى بيته متعباً يتشوق إلى كلمة رقيقة وبسمة راضية عطوف .. ولكن من أين ..؟! إنها لاتفكر إلا في نفسها وفي متعتها ..

وكان آخر خبر سمعته عن سهير أنها وضعت مولوداً وصارت أماً.. ثم انقطعت أخبارها.. وشغلتني أعمالي حتى كدت أنساها... وما إن انتهى الشتاء إلا وكانت مفاجأة سارة لنا حينما أطلت أم سالم على مجلسنا .. وما أن استقر بها المجلس أخذنا نبارك لهـا

بحفيدها ونسألها عن سالم وسهير .. حتى خرجت من صدرها آهات واحتقنت عيناها بالدموع وهي تقول :

ـ أوَ ما علمتم بالخبر ..؟!

ـ أي خبر ..؟!

ـ لقد طلقها..لم يعد يستطيع احتمالها..كانت تشتمه وتلعن الحياة معه .. وتتذمر من تفكيره ومظهره الرجعي .. وتتهمه بالبخل لأنه لا يصحبها إلى الحفلات ولا يشبع نهمها إلى الملابس والمجوهرات .. حتى عيل صبره وثارت ثائرته فطردها من البيت مطلقة .. وكتب إلي وأنا في عمان يستدعيني ويشكو بؤسه وانهيار أعصابه .. فأسرعت بالعودة إليه . .ولم تمض أيام حتى فوجئنا برجال الأمن يدخلون البيت ويحجزون أثاثه استيفاء للمهر المتأخر لسهير .. ولكم كنت غافلة عندما ظننت أن المتأخر أمر شكلي ليس له قيمة وأنه حبر على ورق .. والآن .. الآن أدركت لِمَ كره النبي ﷺ أن نغالي في المهور .. ولِمَ لمْ ترد في السنة فكرة المتأخر من المهر .. ولكن فات الأوان ..

تجمدت الكلمات في حلقي وأنا أحملق في أم سالم .. وهي تقول من بين دموعها :

ـ سالم يستحق كل خير .. لكن آه .. ليس له حظ ..!!

سبحت في أفكاري وجعلت أحصي نتائج هذا الزواج :

ـ شاب محطم غارق في الديون والهموم ..

ـ طفل بريء شريد ..

ـ وفتاة خاضت زواجاً فاشلاً لتخرج منه مطلقة معقدة ..

ـ وأموال ضاعت هباء ..

ـ وآلام تجرعتها الأسرتان ..

أكلٌّ هذا بسبب فقدان الحظ ..؟!

لا ... لا ...

بل إنها بعض ثمار البيت الذي لم يُبْنَ على التقوى ..

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم ..؟! والله لايهدي القوم الظالمين . » .

* * *

- ٢ -

بيت العنكبوت

بدأ الليل يرخي سدوله على أحياء المدينة التي كانت تودع قيظ الصيف وتنعم بأمسيات الخريف المنعشة .. وفتحت المصابيح الكهربائية عيونها الساطعة في الشوارع وأخذت ترقب الناس في سكون ..

وفي حي من أحياء دمشق وأمام أحد بيوتها بدت حركة غير طبيعية ، البيت مليء بالرجال .. وفناء الدار تموج بالبهجة والحيوية يتوسطها كبير منشدي دمشق محاطاً بفرقة الانشاد أمام منصة مزدانة بآنية تضم ألواناً من الورد والقرنفل وقماقم ماء الورد تتخللها برشاقة ..

ها هي ذي أكاليل الزنبق تتلاحق في الدخول إلى فناء الدار لترص حول أريكتي العروسين في تنسيق بديع ... وينثر ما تبقى منها في أركان الفناء .. الملابس أنيقة .. والوجوه مستبشرة .. كيف لا والناس مدعوون إلى حفلة عقد قران ابنة صاحب الدار ..؟! وفي الغرفة العليا من الدار والتي تشرف على فنائها

بنوافذها .. جلست فتاة تفكر ... فتاة في الثامنة عشرة من عمرها .. محمرة العينين ، واجمة التقاطيع .. مرهفة النفس .. توحي تقاطيعها باستسلام مريع بعد معركة عنيفة .. إنها العروس ..!!

وأمام النافذة في الغرفة نفسها وقفت أمها وأختها ـ التي تكبرها ـ تسترقان النظر إلى المدعوين والمنشدين ، وتتهامسان بالملاحظات والتعليقات الضاحكة.. والفرح يسطع على وجهيهما.. وبين الفينة والأخرى كانت أختها تلتفت إليها ضاحكة معلقة مستخفة بآلامها .. محاولة انتزاعها من وجومها ببعض الطرف والنوادر .. ولكن هذا لم يكن ليزيد العروس إلا حرقة .. ويالمرارة الغربة !! إنهم لا يفهمون عليها ..

وسمعت ضجة أقدام صاعدة على السلم .. وأطل من باب الغرفة أبوها وأخوها .. كان أخوها يحمل في إحدى يديه دفتراً كبيراً وفي الأخرى قلماً .. قدم أخوها القلم إليها ووجهه طافح بالبشر والتشجيع .. أخذت القلم وهمت بالكتابة ... صاحت بها أختها ضاحكة .. « هالة » .. تستطيعين ألا توقعي ..

لقد كان في وجه أختها ولهجتها الكثير من السخرية والعبث ...

رمق الأب أختها بغضب بالغ وقال :

كفي عن ذلك .. ليس هذا وقت المزاح ...

كان القلم يرتجف بين أنامل العروس وهي تحاول التماسك.. ثم وقّعت وانتهى الأمر . وأحست ببرودة تسري في أطرافها وأن قلبها يوشك أن يقف عن الحركة ... وانفرجت أسارير أبيها وقال لها بارتياح ورضى .

ـ الله يرضى عليك بيّضْتِ وجهي) ..

وهتف أخوها ضاحكاً وهو يسترد القلم من يدها :

ـ مبروك .. لقد قرأنا الفاتحة على روحك ...

ردت العروس عليهم بابتسامة شاحبة حزينة .. ثم خرجوا من الغرفة ..

وبعد ساعتين نزلت العروس تتألق في زينتها إلى صحن الدار الذي غص بالمدعوات .. وأجلسوها على الأريكة المرتفعة تحيط بها أكاليل الزنبق بين تصفيق المدعوات وبسماتهن المتألقة ونظراتهن الجذلة .. وتساءلت في نفسها :

ـ يصفقن لي .. وكأنني أحرزت نصراً كبيراً ..

جلست كالدمية الخرساء .. شخصها يمثل فرحاً .. لكن نفسها تعيش مأتماً .. لقد وقعت على أخطر وثيقة في حياتها .. لقد ربطت مصيرها بإنسان لا تعرف عن تفكيره وأهدافه وأخلاقه شيئاً ... بل إنها تعرف من خلال ما ذكر لها عنه أنه شاب عادي بل و (عصري) كما يقولون ..

لقد كانت خلال السنوات الثلاثة الماضية قد سلكت طريق

الهدى والإيمان .. وأخذت على نفسها عهداً أن تكون طاعة الله منهاج حياتها فلقيت معارضة كبيرة من أهلها . وكان أكثر ما يضايقهم هو رفضها الزواج ممن تقدم لخطبتها لأنها تريد إنساناً مؤمناً باع نفسه لله .. لقد ناضلت كثيراً في الماضي .. وكان عمها المتدين يساعدها في المرات السابقة .. ورفضت الزواج من كثير من الذين كانوا في ميزان أهلها يمثلون الزوج المناسب . وفي هذه المرة كانت تناضل في أول مراحل الخطبة وتعارض لأنهم لا يريدون أن يتحروا ما عند الخاطب من الدين والخلق . وكان أبوها يقول :

ـ شاب نشيط ووسيم ، ومن عائلة محترمة ، وعمله جيد ، ودخله ممتاز ، وأبوه شيخ متدين عرف بالتقوى ... فلا بد أن يكون الابن مثله ولا داعي للاستفسار أكثر من ذلك ...

وكانت أمها تقول :

ـ أمه وأخواته متدينات متحجبات .. ومن حيث المال أغنياء .. والمهر جيد .. والسكنى في بيت مستقل يجهزونه لك ...

وكانت أختها تقول : درس في أوربا ... تفكيره راقٍ وعصري .. وعنده سيارة ..

وكان أخوها يقول :

ـ لقد أعجبني كثيراً عندما رأيته .. إنه أنيق (مودرن) وجذاب .. اجتماعي ومنطلق ..

كانت كل هذه الصفات تزيد من ألمها لأنها تعطيها صورة شاب نشأ في بيئة لا تفهم من الدين إلا بعض القشور الخاوية المملة، فانطلق منها وراء التحرر والتفرنج مؤمناً بأن الدين شيء والحياة شيء آخر .. لقد ناضلت كثيراً .. لكن والديها تشبثا برأيهما بحجة أنها لا تعرف مصلحتها .. وبحجة الخوف عليها من كلام الناس الذين لا يجدون مبرراً لإعراضها عن الزواج إلا توجيه التهم .. وحتى عمها الذي كان يدعمها .. خذلها هذه المرة وأوحى لها بالاستسلام إلى القدر بزعمه .. ووقف موقف التشجيع على سلوك طريق وعرة مظلمة مجهولة النتائج .. وحاولت هاله أن تخرج نفسها من هذه الدوامة المؤلمة ... وبدأت ترقب مرح المدعوات ، وتشغل نفسها بما يدور بينهن .. وتناهى إلى سمعها حوار خافت قريب بين اثنتين ... قالت الأولى :

ـ ألا ترين معي أن العروس ليست على ما يرام ..؟

أجابت الثانية :

فعلاً إنها كئيبة .. لم تكن تريد الموافقة على الزواج ..

قالت الأولى باستغراب : ولماذا ؟

ـ كنتُ قبل قليل أبارك لأمها وسألتها عن ذلك .. ؟ فحدثتني عن ابنتها وكيف أنها لا تعرف مصلحتها حتى لقد دفنت نفسها واعتزلت الدنيا بهذا التعصب الزائد .. وكان لا بد من انتشالها وإنقاذها من هذا الحرمان .. وكم تعبنا حتى أقنعناها

بقبول هذا الزواج ، وغداً تترك كل هذا التعصب وتستمتع بالحياة مع هذا الشاب الذي سيعرف كيف ينتزعها من هذا التزمت .

سقطت الكلمات على قلب هالة سقوط المطارق .. وشعرت بالدم يغلي في عروقها .. وأرادت أن تصرخ فيهم جميعاً :

ـ إنكم لم تفهموني..!! ليست القضية تعصباً أو تزمتاً.. إنها التزام أمر الله الذي فيه الحياة الرغيدة والسعادة والراحة النفسية .. إنكم لا تفهمون أني لا أجد السعادة إلا في ديني .. آه .. أردتم انقاذي فأهلكتموني ..

تنبهت هالة من أفكارها على جلبة في مدخل الدار .. وارتفع صوت إحدى النسوة تهتف :

ـ جاء العريس [1] ..

وبعد قليل كان القيد الذهبي قد أخذ مكانه من أصبعها ..

لقد أُكرهتَ أيها العصفور المنطلق ، على الدخول إلى قفص من ذهب ، لأن الناس يعبدون الذهب .. فأين هم من مقياس الله تعالى :

« ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » ..

يا إلهي .. لقد جرفوني معهم حتى خالفت المقياس الذي وضعته لنا يارب .. فهل أنجو من النتائج ..؟!

---

(١) الأصح لغة أن تكون العروس ولكنه خطأ شائع بين العامة أن يستعملوا كلمة (العريس) للرجل .

وارتجفت أوصال هالة وهي تتذكر قول الله تعالى :

« فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . » .

... وغامت عيناها بالدموع ..

لم تنتبه هالة من آلامها إلا على أختها تقترب منها محدقة فيها بقلق ثم تهمس لها :

ما بك ياهالة لقد شحب وجهك .. وبدت القشعريرة على يديك ..؟! عيب ياهالة سيظن الناس بك الظنون ..

ثم رفعت صوتها تُسْمِعُ المدعوات :

ـ هل تشعرين بالبرد ..؟!

نظرت هالة إلى أختها بصمت وهي تغالب دمعها .. وتناولت الشال الذي قدمته لها بسكون واستسلام ...

..ومرت الأيام .. ودارت السنون .. وها نحن أولاء مرة أخرى أمام البيت الذي شهد مباهج الزفاف منذ عشر سنوات ..

مَنْ هذه السيدة المتعبة التي تقرع الباب وحولها ثلاثة أطفال، وعلى ذراعها طفل رابع لا يجاوز السنة من عمره ..؟!

انفرج الباب وأطل وجه صاحبة البيت ينظر باستفسار .. وهتفت :

ـ هالة ..؟ أهلاً وسهلاً .. أدخلي يا ابنتي ..

دخلت هالة وأولادها الأربعة إلى البيت بوجه شاحب بادي النحول يدهش الناظر إليها ولا يكاد يصدق أن هذا الوجه الذي أثقله الهم هو وجه هالة التي لم تجاوز الثامنة والعشرين من العمر ..

كانت الأم تتصنع البشر والترحيب بأحفادها .. وقلبها مفعم بالأسى .. إنها هالة .. الوردة النضرة التي أخذت تذوي منذ زواجها حتى صارت إلى هذا الذبول .. هزت الأم رأسها بحسرة .. ونفسُها تتساءل :

أين مني هالة .. تلك الفراشة المرحة التي كانت تملأ البيت أنساً .. أهي تلك المرأة التي تجلس أمامي .. وقد أسرع الهم بهـا إلى الهرم .. فشاخت وهي في شرخ الصبـا .. ما الذي يضنيها .. ؟ وما سِرُّ زيارتها المفاجئة اليوم ..؟!

ولم تتمالك الأم نفسها أكثر من ذلك واندفعت تسأل ابنتها في حنان :

ما بك يا حبيبتي .. ؟ وأين زوجك .. ؟ لم لم تأتوا معه في سيارته .. ؟!

تنهدت هالة وقالت :

لقد أتيت وحدي ..

وسكتت برهة وقد أفلتت من عينيها دموع كان لها وقع السياط على قلب أمها .. وتجمدت الكلمات في حلق الأم وهي

تحدق في وجه ابنتها واجمة .. ما الذي حدث يا ترى .. ؟! لقد كانت تحس بأن الأحوال ليست على ما يرام بين هالة وزوجها وإن كانت هالة تحاول الظهور بمظهر هادىء وتخفي الأزمات عن الجميع متذرعة بالصبر ..

تمتمت هالة :

ـ لقد خرجت من عندكم وحدي .. وها أنا أعود إليكم بأربعة أطفال مشتتين .. لقد دفعت ثمن استسلامي لإرادتكم غالياً .. عشر سنوات من عمري قضيتها بين شد وجذب تقطعت منها أنفاسي .. وكنت أخفي آلامي عنكم .. لأني آثرت معالجة مشاكلي وحدي .. كنت أحاول طاعة الله في ظل رجل يريد عصيان الله .. كنت على يقين من أن دين الله هو سعادة الدنيا والآخرة .. وكان هو بعيداً .. بعيداً .. يريد الانطلاق وراء الهوى والشيطان. كان يشتعل غضباً لثباتي على أمر الله .. ويعتبر اعتزازي بديني خدشاً لكبريائه .. وطعناً في عقله ورجولته .. ! كيف أرفض الخضوع لنزواته وهو الرجل وأنا المرأة التي ليست في نظره إلا ظلاً تابعاً لرغبات زوجها .. ؟! ومرت السنوات العشر على هذه الحال وأنا أحاول شده إلى طاعة الله .. وهو يحاول جذبي إلى معصيته .. وأصبح هؤلاء الأطفال حيارى مشتتين بين طرفي نقيض .. واليوم عندما لمس الإصرار مني على توجيه أولادي إلى طاعة الله أعلن أنه لن يحتمل هذه الحال بعد الآن .. لقد تحمل ـ حسب ادعائه ـ عنادي عشر سنوات على أمل أن أنسجم مع

رغبته ، وأصبح رفيقة سهراته المعربدة الصاخبة..فكيف يتحمل جمودي وتحجري أكثر من ذلك ..؟! وبكلمات حادة قذرة طردني كأي خادمة حقيرة ..

تفجرت ينابيع اللوعة من عيني الأم وهي تسمع لابنتها .. زفرت هالة وقالت :

ـ لقد انزاح هذا الكابوس عن كاهلي أخيراً بعد أن دفعت الثمن غالياً ..! عشر سنوات من الشقاء المرير .. وأربعة أطفال من كبدي سيأخذهم بعد انقضاء فترة الحضانة .. ليرديهم في طريق الشيطان ويقذف بهم في الجحيم ..

إنه بيت أسس على الشقاء والهواء .. بدون دعائم ..

« كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » ..

وسرعان ما ينهار بيت العنكبوت على رؤوس أصحابه بعد أن يدفعوا الثمن غالياً ..

تنهدت الجارة الطيبة بأسى ، وهزت رأسها بحسرة وقالت :

قسمة ونصيب ..!!

فضجت نفسي بتنزيهك يارب .. ورددت قول الله :

« إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

إنها نتائج لما كسبت أيدينا ..

« قل هو من عند أنفسكم » .

* * *

- ٣ -

طوبى للغرباء

الليل قد جاوز منتصفه .. والدار قد سكنت وهدأ صخبها وتلاشت أنوارها .. واستسلم أهلها لدعة الرقاد .. فهدأت النفوس والعيون .. إلا عينين مؤرقتين دامعتين تحدقان في الظلام .. تنهدت ندى وتتابعت أنفاسها حرى .. وهمست والدموع تنحدر من عينيها فتبلل وسادتها :

يا رب ...

وانسحبت من فراشها بهدوء واتجهت نحو النافذة ففتحتها بحرص من يخشى أن ينتبه إليه أهل الدار ..

وأحست بالانتعاش وهي تتلقى لمسات النسيم الناعمة وتفتح له صدرها .. وتطلعت نحو السماء بخشوع ، والنجوم تتألق فيها كالدموع وارتجف قلبها من جديد هاتفاً : ـ يا رب ..

اتكأت ندى على حافة النافذة .. وسبحت وراء أفكارها ..

وبعد .. أما من نهاية لهذه الأحزان .. ؟!

هل كتب على هذه الروح أن تبقى سجينة مكبلة ..؟

هل كتب عليها أن تعيش دمية بلهاء كما يريد هؤلاء .. ؟

ضيق لا ينتهي .. وحزن أعمق من الحـزن .. وصراع تخوضه نفسها وحيدة في وجه إغواء الشيطان .. ومـواقف وذكريات مريرة تلقي بظلالها حول نفسها ..

وانساقت الذكريات تتّابع في ذهن ندى كشريط متلاحق الحلقات ... ها هي ذي صور الطفولة تبرز من عالم النسيان ..

منذ نعومة أظفارها وأول حادث تذكره في حياتها أنها كانت واقفة تبكي كما يبكي الأطفال في أكثر الأحيان لأسباب صغيرة .. ثم سكتت قليلاً إزاء خاطر خطر لها .. بل أمام أسئلة كثيرة برزت لها ..

من أين أتت .. ؟!

وإلى أين تذهب .. ؟!

ولماذا تعيش ..؟!

ومن هؤلاء الذين من حولها .. ؟!

ما غاية هذا المطاف ..؟!

وفيم هذه الحياة ..؟!

واشتدت بها الحيرة ولم تستطع الإجابة على واحد من هـذه الأسئلة . ولم يخطر لها أن تلجأ إلى أمها أو أبيها أو أحد مـن هؤلاء الذين يحيطون بها .. فكل واحد منهم مشغول عنها في عالمه الخاص .. ولن تلقى منهم إلا اللامبالاة والاستخفاف ..

إنها طفلة وحيدة حائرة تواجه هذا العالم الكبير المخيف .. وتتقاذفها أمواج الحياة المتلاطمة .. طفلة تحاول فهم هذا اللغز الكبير .. لغز الحيـاة .. فيخذلها الإدراك وتعوزها البصيرة وتتلفت باحثة عمن يأخذ بيدها ويبصرها فلا تجد في هذا الخضم نصيراً .. وتتذكر ما سمعته من والدتها بأن أباها قد اكفهر وجهه وعلاه الضيق والأسى عندما بشر بولادة ندى لأنه كان يريد صبياً يعتز به ويشد من أزره .. فتزداد الطفلة ألماً وتنكمش على نفسها وتستسلم للبكاء من جديد ..

والحادث الثاني الذي تذكره .. كانت مرة مع أمها في إحدى الزيارات المسائية .. وامتلأت الغرفة بالنساء وقد حرصت كل واحدة منهن على أن تبدو في أحلى وأكمل زينة .. وانعقد مجلسهن وعلت أصواتهن ورنّت ضحكاتهن وكل واحدة منهن تتصنع في جلستها وتشمخ بأنفها كبرياء .. شعرت بأنه مجلس لاناقة لها فيه ولا جمل .. فتسلّلت نحو المطبخ .. وهناك رأت فتاة طويلة يبدو من هيئتها أنهـا الخادمة .. كانت تعد القهوة وهي تغني أغنية حزينة من قريتها..وبدا لندى أن دموعها تنثال مع غناء الخادمة .. وتحركت نفسها الصغيرة وتألمت لها .. فما أبعد الهوة بين هذه الفتاة الكادحة البائسة وبين هؤلاء النسوة اللاهيات المنعمات والتفتت إليها الخادمة وأمرتها بلهجة حادة أن تعدّ لها الفناجين فأعدتها لها بطيبة خاطر ودموعها تنهمر مع أغنيتها الحزينة .. وكانت تتساءل في نفسها :

ـ لِمَ هذا التناقض فيك أيتها الحياة .. المترفون المستكبرون .. والضعفاء المتعبون .. وهذه الفتاة المستضعفة ..! إنها تحلم بأن تكون مثل هؤلاء النسوة فتتعالى وتصدر الأوامر ..! فهل هذا هو أقصى ما ينبغي أن يصبو إليه الانسان .. ؟!

ومرت الأيام وجاوزت ندى الطفولة .. وخطت نحو الشباب وبدأت تعي أحداث الحياة أكثر فأكثر .. ورأت الناس من حولها يعطون للذكر مالا يعطون للأنثى .. فهو محط الآمال وهو الرجل الذي لا يعيبه شيء مهما تطاول واستهتر .. وهو الجدير بأن يدرس ويتعلم ، ونجاحه أهم من نجاحها .. لا يُسأل عن أعماله وأوقاته ، ولا يرد له طلب أو قول .. فتساءلت : لماذا .. ؟!

فقالوا : الله فضّله ..

فتعجبت وازدادت حيرتها .. ؟! أحقاً فضله الله .. ؟!

ونظرت إلى مثيلاتها فرأتهن على طريقين مختلفين .. فريق يقبل الواقع ويستعد لأداء الدور التقليدي للمرأة بقضاء الساعات أمام المرآة والتمرن على جر الذيول .. مرددات مع شاعر الانحطاط:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وفريق ينطلق جامحاً ثائراً على كل شيء فانطلقت مع الثائرات تبحث عن مكان لائق تجلس فيه وعن دور كريم تقوم به .. وتنهدت ندى من جديد وهي تذكر كل هذه الأحداث .. وتمتمت تناجي ربها :

وتعبت يا رب ... وأضناني المسير .. وأوجعتني مناظر العري والتبرج والإغواء .. وأرعبتني عيون الذئاب التي تنضح بالغدر والطمع .. وتساءلت كثيراً والألم يعصرني .. لماذا مسخ الناس إلى ذئاب .. ؟! وكيف تعود لهذا الانسان كرامته وقداسته .. ؟!

وهزت ندى رأسها بأسى وهمست :

ـ كل هذا وأنا بعيدة عنك يا إلهي .. أسمع اسمك يتردد على الألسنة لفظاً لا تدرك النفوس معناه .. ولا تنعكس ظلاله على الوجوه والسمات فلم أعرفك .. ثم عرفتك يا إلهي .. عرفتك في عبادك المؤمنين .. رأيت فيهم نظافة الخلق وعفة النظر .. وجوههم نيرة ، قلوبهم طاهرة .. نفوسهم وأيديهم تنضح بالعطاء. أردت أن أكشف سرهم .. كيف استعادوا انسانيتهم .. ؟!

كيف استردوا كرامة الانسان وسموه .. ؟! فرأيتك يا رب تملأ عليهم قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يرغبون إلا إليك ولا يستهويهم إلا رضاك .. دلّوني عليك وعرّفوني بآياتك .. فتذوقت حلاوة النداء ..

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .. »

وعرفت روعة العدل الإلهي بكلماتك :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً .. » .

وعرفت أن الناس لم يفهموا آياتك حين زعموا أنك تؤثر الذكر على الأنثى في كل شيء .. وأقبلت على كتابك فوجدت فيه بغيتي وعرفت طريقي وأدركت كرامة الدور الذي كلفتني به .. فاهتديت وأسرعت إليك .. ففتحت لي الأبواب..فياطيب اللقاء..

وانطلقت من جديد وقد عاهدتك على الاستجابة والطاعة .. ولكن ..! (زفرت ندى بحرقة وتلاحقت الدموع من جديد تلسع وجهها..) لقد تألب أهل البيت كلهم ضدي يسخرون مني ويؤذونني .. ونزلت إلى الميدان وحدي أخوض معارك ضارية مع أقرب الناس إلي ..

وعادت ندى تسترجع ذكرى هذه الأحداث المؤلمة ..

لقد فوجيء أهلها بهـا وهي تقيم الصلاة في غرفتهـا .. فدهشوا وتضاحكوا ووقف أخوها يتأملها من رأسها إلى قدميها... ثم هتف ساخراً :

ماذا تفعلين ..؟!!

وإذ رآها تواصل صلاتها ، ولا تهتم به ...

مدّ يده فنزع الخمار عن رأسها، وقاومته فمزّق الخمار وهو يقول بتشف :

ـ كفي عن هذه (الجدبة) ..

كانت هذه هي المعركة الأولى .. وجاءت الثانية بعد أيام ..

وكانت قد أخبرتهم عـن عزمها على طاعـة الله في كـل شيء .. فاعترضوا وهددوا واستهزؤوا وقالت أختها هناء :

ـ يا حسرتي عليك يا أختي لقد جننتِ ..

وحاولت ندى أن تفهمها أن الأمر على عكس ما تتصور .. وأن طاعة الله هي الخير والرشاد فصاحت بها :

ـ اذهبي عني ولا تحاولي اقناعي فمن المستحيل أن أجن مثلك ..

ونظرت إليها أمها بإشفاق وقالت :

ـ تريدين أن تحرمي نفسك مـن كل شيء .. وتضيعي مستقبلك .. تباً لهؤلاء الذين لعبوا بعقلك وخدعوك ..

وحاولت ندى اقناع أمها عبثاً .. وما كان من أمها حينئذ إلا أن ثارت وصاحت :

اسمعي يا ندى أنا لن أسمح لـك أن تستسلمي لهـذا الخبال .. وإني أعلن سخطي عليك إن لم ترجعي إلى صوابك ..

ووجمت نـدى وأخذت تتأملهم والحزن يعصر قلبها ... رباه كيف صارت الحماقة صواباً ينبغي أن يرجع الانسان إليه ..؟!

وقالت لهم بتصميم :

ـ حسناً .. ليتصرف كل منا حسب قناعته . أما أنا لن أطيع إلا الله وحده .. وتركتهم وأسرعت إلى غرفتها .. ولجأت إلى قرآنها تتزود منه السكينة والثبات ..

وحل المساء وأقبل معه ضيوف وأقارب رجالاً ونساء في سهرة عائلية مختلطة كالمعتاد .. ومن غرفتها سمعت صوت والدها وقد خرج من غرفة الضيوف يسأل عنها :

ـ أين ندى .. ؟

فترد أختها بسخرية لاذعة :

ـ الراهبة الناسكة معتصمة بصومعتها .. هاربة بطهرها من دنيانا الملوثة الزائفة ..!!

فيقاطعها الوالد :

ـ كفاك مزاحاً ..!

فتقول والدتها في لهفة :

ـ بل إنها تقول الحق .. ابنتك ندى هذه في خطر .. لقد اعتزلت الدنيا وما فيها ، وهي لا تنفك في صلاتها ليلاً نهاراً .. إنني خائفة عليها. لقد حدثوني أمس عن فتاة جُنَّتْ لكثرة ماتعمقت في الدين .. وعن فتاة أخرى قتلت نفسها لشدة إحساسها بالذنب .. لا بد من أن تحاول انقاذها .. لا بد من إخراجها من صومعتها ..

ودخل الأب غرفة ندى متحفزاً متوتراً .. وإذ رآها منكبة على كتبها المدرسية .. هدأ قليلاً ثم قال :

ـ ما هذه العزلة .. وأنت تعلمين أن لدينا ضيوفاً ..؟!

ـ آسفة يا والدي .. ولكنني مضطرة إلى ذلك بسبب دراستي ..

فرد الوالد بلهجة آمرة :

ـ لا بد من مشاركتك في الترحيب بالضيوف وإكرامهم .. كلهم يسألون عنك .. وإن ساعة من وقتك لن تؤثر كثيراً على دراستك .. هيا قومي واستعدي لذلك ..

ظهر البؤس على وجه ندى وحاولت أن تحتج :

ـ ولكن يا أبي ..

فقاطعها بحزم :

ـ لا فائدة من المناقشة .. لا بد من دخولك ومشاركتك للضيوف هيا سأنتظرك في غرفة الجلوس دقائق ريثما تعدلي من هندامك ثم ندخل معاً ..

وقامت ندى متثاقلة مهمومةواتجهت إلى(دولابها) .. وقفت هنيهة تفكر .. لا بد من المواجهة إن عاجلاً أو آجلاً .. لا بد أن يعرف الجميع أنني صممت على طاعة الله ولن أحيد ..

دلفت إلى غرفة الجلوس بثوبها الطويل الفضفاض وخمارها الذي لفته بإحكام حول وجهها .. والتفت والدها إليها مشدوهاً :

ـ ما هذا ..؟!

قالت بهدوء : حجاب ..

ـ منذ متى ..؟ ولماذا ..؟!

ـ لقد عاهدت الله على طاعته .

ـ ولكن الضيوف ليسوا غرباء .. إنهم أعمامك وعماتك وأبناؤهم .. إنهم كإخوانك ..!!

ـ قد أمرني العليم الحكيم بالحجاب من أبنائهم ..

ـ ولكن منظرك هكذا خالٍ من كل أناقة أو جمال .. لقد فقدت حيويتك.. إنك تظهرين كجدة في الستين من عمرها..

ابتسمت ندى وقالت في ثبات :

ـ ولكنني أشعر بالسعادة والكرامة فيها .. إنها نظيفة ومرتبة .. ومريحة .. وأروع ما فيها هو رضى الله ..

قال وهو يمتحن مقدار تصميمها :

وهل ستدخلين بهذه الهيئة المزرية ..؟!

قالت ببرود : إلا إذا أعفيتني من الدخول ..

وإذ شعر الوالد بقوة تصميمها آثر أن يحافظ على شخصيته وكيانه فلا يصدر أمراً يعرض فيه نفسه للعصيان . والمهم الآن أن يخلصها من العزلة والتطرف .. إن احتكاكها مع الناس لا بد أن يؤثر فيها ..

قال الوالد وهو يتصنع اللامبالاة : كما تشائين ..

واتجه نحو غرفة الضيوف .. تنفست ندى الصعداء .. الحمد الله لقد مرت الخطوة الأولى بسلام .. يارب أعني ..

دخلت ندى وألقت تحيتها على الجميع مرحبة .. ووجم الضيوف في البداية لمنظرها واحتقن وجه والدتها بغضب مكظوم ، وأعرضت عنها .. وما أسرع ما انطلقت الضحكات والتعليقات ..

وتجملت ندى بالصبر وجلست بينهم مرفوعة الرأس وقد توهج وجهها من التأثر .. وشعت عيناها ببريق التحدي والاستعلاء وهي تحاول أن تبين لهم أهمية طاعة الله وحلاوة العيش في كنفه ..

واستمر الضيوف في سخريتهم وعتبهم إلى أن قامت أختها هناء إلى جهاز التسجيل وكأنها رغبت في تغيير دفة الحديث ، وهتفت وهي تضع الشريط وتضغط على الأزرار :

ـ أسمعتم آخر أغنيات (ديميس روسوس) .. ؟!

وساد الجو هرج ومرج .. وانطلقت صيحات المغني تشق الآذان وترافقه موسيقى مجنونة تعصف بالنفوس وتضرم النار فيها ..

وتحركت أقدام الشباب تقرع الأرض بتوتر .. وعيونهم تنظر إلى الكبار بضيق ونفاذ صبر .. هتفت الفتيات بتبتل :

ـ آه .. ما أروعه .. إنه معبود المراهقات ..

دمدم أحد الشباب منفعلاً :

ـ لا يمكن السماع بدون رقص .. !!

وغصّت الآهة في حلق ندى وهي تتأمل هذا الصخب المحموم .. نظرات متأججه .. وهمسات ناعمة .. لكنها كدوي المدافع في نفسها .. ها هم أولاء شباب الأمة وزهرة آمالها يذبحون أنفسهم قرابين على مذبح الشيطان .. ها هم أولاء يرمون أنفسهم في الهاوية.. واندفعت الدموع من عينيها ،ونفسها تتضرع إلى الله :

ـ يارب .. أنا لست منهم .. إني وحيدة غريبة وسط هذا الجحيم .. النار .. النار .. لا أستطيع أن أراهم وهم يحترقون.

وقامت ندى منسحبة .. ورمتها أمها بنظرات قاسية .. لكنها خرجت لا تلوي على شيء ..

ولم تستطع ندى أن تذاكر دروسها فقد كان صخب السهرة العائلية طاغياً يزيد من آلامها .. ففزعت إلى الصلاة تشكو غربتها إلى الله .. وتستأنس بمناجاته .. إلى أن غلبها النوم .

وفي اليوم التالي .. فوجئت بكتبها الدينية مفقودة . وفتحت (الدولاب) تبحث عن ملابسها فلم تجد جلبابها وخمارها.. لا شك أن أمها هي التي أخذتها ، وعرفت أنها أمام معركة جديدة وأقوى مما سبق .

وجلست في غرفتها برهة تفكر وتبكي .. ماذا تفعل ؟! وكيف ستذهب إلى المدرسة .. ؟! إنها تستعد لنيل الشهادة الثانوية ، وصحيح أن العام الدراسي في أوله لكنها بحاجة ماسة إلى التلقي من المدرسات وكل ساعة من وقتها لها قيمتها .. إنها

بحاجة إلى أعصاب هادئه وذهن خال من المشاكل ولكن أنى لها الهدوء وهي في هذا الخضم الزاخر من المعاناة ؟ هل تستسلم أمام المحنة الجديدة .. ؟ أم تستمر في ثباتها .. ؟

لا بد من المناقشة والمحاولة مع أمها ... ولكن إن رفضت الأم أن ترد لها لباس التقوى فماذا ستفعل ..؟!

واشتدت وطأة الهم عليها .. إنها تحب المدرسة والدراسة ولها فيها بعض الصديقات المؤمنات اللواتي يشاركنها في الفكرة والهدف فتأنس بهن ويأنسْن بها ، تعودت أن تلجأ إليهن فيشددن من أزرها .. حتى أنهن قد ساعدنها على تهيئة الخمار والجلباب ولولا دعمهن لما استطاعت ذلك وحدها .. هل تخرج بدون حجاب .. ؟

هتفت أمام هذا الخاطر الشيطاني :

ـ لا .. لن أخرج أبداً إلا بالزي الذي يقبله الله .. إنه لباس التقوى لباس الكرامة الانسانية ..

وخرجت من الغرفة وقد استعدت للمحنة ووطّنت نفسها على تحمل النتائج . لا بد للحق من جنود مخلصين يضحون من أجله حتى بأرواحهم .. ألم تقدم سمية وزوجها روحيهما فداء للحق .. ؟ فما بالنا تتردد والمحنة لم تصل بعد إلى مستوى بذل الروح .. ؟!

توجهت ندى إلى أمها التي كانت تتشاغل ببعض الأعمال المنزلية وحيتها تحية الصباح ، فردت عليها بفتور .. اقتربت ندى منها حتى واجهتها وسألتها وهي تحاول أن تسكب في لهجتها كل ما تملك من ود ولطف :

ـ أماه .. أين جلبابي وخماري .. ؟!

نظرت الأم إلى ابنتها بصرامة .. وقالت بحزم :

ـ ما عندنا ثياب من هذا النوع المزري ..

وبذلت ندى كل ما تملك من تودد واستعطاف لأمها :

ـ أماه لقد تأخرت عن المدرسة .. لم أعهدك إلا حريصة على مساعدتي في الدراسة والتحصيل .. فلا تحرميني من العلم يا أمي ..

قالت الأم بلهجة ملؤها التصميم :

ـ أنا لاأحرمك من العلم..بل أبعدك عن الهوان والخبال.. أنا لن أسمح لابنتي أن تصبح أضحوكة الناس .. تحرم نفسها من كل مباهج الحياة وتقضي نهارها بالانزواء في غرفتها ، وليلها بالبكاء وقراءة مالا يفيد ... لقد حذرتك قبل الآن يا ندى فلم تسمعي نصحي .. سترين أني لن أسمح لك بقراءة شيء من هذه الكتب التي أفسدت عقلك .. ولن أسمح لك بمعاشرة هؤلاء (المجاذيب) الذين سلبوك كل إرادتك وحيويتك .. لن آذن

لهم بالدخول لزيارتك .. ولا بالتحدث معك على الهاتف .. وهذه الثياب المهينة التي تبحثين عنها لن تريها في حياتك .. فاذهبي إن شئت إلى المدرسة أولا تذهبي ..

اندفعت الدموع إلى عيني ندى وشعرت بثورة جامحة تجتاحها وكادت تصرخ في وجه أمها ..

ـ أنت ظالمة قاسية .. لا يحق لك أن تفرضي علي ما تحبينه من الأفكار وتتحكمي حتى في اختيار صديقاتي وملابسي .. لم لا تتدخلين في حياة أختي مع أنها توشك أن تقع في الهاويه ..؟! لم لا تمنعين أخي من استهتاره وسهراته الماجنه التي قضت على كل تحصيل علمي له .. ؟!

لكنها تذكرت قول الله تعالى :

« وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً .. »

فكظمت ثورتها وتهاوت على أقرب مقعد تبكي وتتمتم بخشوع :

ـ سمعاً لربي وطاعة .. وتذكرت دعاء رسول الله حين عاد من الطائف وقد خذلته ثقيف وأغرت به سفهاءها يضحكون منه ويحصبونه بالحجاره حتى سالت الدماء من قدميه الشريفتين ...

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين .. انت رب المستضعفين وأنت ربي ..

إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي... أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك ... » .

كانت أمها قد عادت إلى التشاغل بأعمالها المنزلية وهي تتكلف اللامبالاة ..

وشعرت ندى باليأس من إقناع أمها .. كيف تفهم عليها أمها وهي لا تحس بالتقزز من نظرات الذئاب وهي تشرح الأجساد وتتربص الفرصة للانقضاض .. كيف تدرك خطورة الأمر وهي لا تجد لسع النار التي تضطرم في نفوس الشباب وتلقي بهم في متاهات الضياع ..

آه يا أمي لو تعرفين أنني أبحث عن ميلاد جديد للانسان تتحقق فيه الكرامة والسعادة والاستقرار .. إنه ميلاد عظيم يستحق منا كل بذل وتضحية ..

استعادت ندى هدوءها وتماسكها فنهضت قائلة بثبات :

ـ لن أخرج من البيت إلا بثياب التقوى التي ترضي الله .. ولن أظهر أمام أحد من الرجال إلا بها ولو اقتضى الأمر ألا أخرج من غرفتي ...

واتجهت إلى غرفتها بخطوات ثابتة رصينة .. ومضت على هذه الحال ثلاثة أيام عصيبة ... لزمت ندى فيها الدار وحرمت من كتبها وصديقاتها ... كانت تسمع بأذنيها رنين الهاتف ،فتسبق

إليه أمها ـ التي فرضت عليها رقابة شديدة ـ ... ترفع السماعة فيتناهى إلى سمعها صوت إحدى رفيقاتها تلقي التحية على والدتها وتطلب الحديث مع ندى ... كان قلب ندى يكاد يقفز من صدرها ... لكن أمها كانت تسرع في الاجابة بحزم فتقول : إنها (غير موجودة) ... أو (غلطانة يا ابنتي) ... تنهدت ندى وقد اتكأت بمرفقيها على حافة النافذة وتمتمت :

ـ ثلاثة أيام وأنا سجينة .. وحيدة .. غريبة ..

وسقطت من عينيها دمعتان كبيرتان .. وتطلّعت نحو السماء بحرقة وتساءلت في نفسها : أحقاً أنا وحيده غريبه .. ؟

ارتعشت الأشجار بخشوع متناغمة مع نسمات السحر الرقيقة واهتز غصن قريب من النافذة فداعب شعرها ، فأحسّت كأن النجوم ترنو إليها بحنان .. والسماء الصافية الوقوره تفتح ذراعيها وتحتوي الجميع .. وانطلقت نفسها تسبح مع الأفلاك وتعانق الأغصان وتصغي إلى حفيف الشجر .. وتتابع رقص الظلال .. الكون كله يناجيها ويهمس لها : لا تحزني .. إننا جميعاً في ظل عرش الله ...

أنت لله فلا تخشي عناء ...

ترتضي الأشواق أن ترضي السماء ...

وينال الخير قلب قد تناءى ..

عن حياة الظلم ثاب إلى المفاز وحباه الله رضواناً وبشرا

••• وارتفع صوت المؤذن يبتهل في السحر بنغم حنون :

ببابك عبد من عبيدك واقف
على أمل •• مما به أنت عارف ••• يا رب

••• صاح ديك من بعيد •• وارتجف قلبها من جديد :

ـ كلهم يسبحون لك يا رب •• ما أروع هذا المشهد •• كيف يغفل الناس عن هذه السعادة •• ؟ كيف يستطيعون العيش وهم مقطوعون محرومون منك ••

تابع المؤذن ابتهاله :

يا أرحم الراحمين •• ارحمنا
عافنا يا إلهي •• واعف عنا •• يا رب

شلال أبيض من النور يتدفق في قلبها •• السماء والنجوم والكون كله ينتشي برعشة الحب للرحمن •••

سجدت تصلي بدموعها •• وتناجي ربها :

ـ إلهي •• قلبي هذا الذي ملكته لن أدنسه بالمعاصي •• لن ألوثه بالكراهية والحقد •• سأفتح قلبي لهؤلاء المساكين الذين حرموا أنفسهم من حلاوة مناجاتك ولـذة طاعتك •• سأعيش للعطاء •• لأدلهم عليك •••

لم تعد ندى تستسلم لليأس والألم •• بل نظمت وقتها بحيث تستطيع أن تتدارك ما يفوتها من دروس في المدرسة

بالاعتماد على نفسها .. وواجهتها عقبات بسيطة .. لكنها استطاعت أن تغافل أمها مرة وهي نائمة فاتصلت بإحدى صديقاتها فوضّحت لها ما صعب عليها ، فشجعتها صديقتها بكلمات سريعة على الثبات ..

وجعلت من برنامجها أن تساهم بالقيام ببعض الأعمال المنزلية مساعدة لأمها وإرضاء لربها الذي أمر ببر الوالدين في كل الأحوال .. وانصرم أسبوع على هذا المنوال ... وفي اليوم الثامن أحست ندى أن نقاشاً طويلاً قد دار حولها بين أمها وأبيها .. كان هذا في الصباح وأبوها يستعد للخروج إلى عمله.. لقد سمعته يقول لأمها محتداً قبيل خروجه : إنك تسيئين التصرف .. اتركي الأمر لي وسأعالجه ..

وقضت ندى يومها ينتابها القلق .. ما الأسلوب الذي سيلجأ إليه أبوها ..؟ وصلّت داعية الله بحرارة أن يعينها ويثبت أقدامها ...

وصل الوالد في المساء مبكراً عن عادته ... وهتف بمرح :

ـ ما رأيكم بالخروج في (فسحة) ..؟ أشعر بحاجة إلى الترويح عن نفسي .. رد الجميع بحماس : هذا رائع ... وقفزوا إلى غرفهم يستعدون للخروج .. إلا ندى فقد ارتجف قلبها وأحست بأنها على حافة امتحان جديد ...

نظر أبوها إليها متسائلاً : مالك ساكتة هكذا ..؟!

أجابت وهي تتصنع الهدوء : لا شيء ..

ـ إذن أسرعي في الاستعداد للخروج ..!

كانت ندى لا ترغب في الخروج معهم لأنها لا تنسجم مع أسلوبهم في الترفيه عن النفس .. وقد يرتادون أماكن تشمئز منها .. ولكنها قررت أن تطرق الموضوع من جانب آخر .. فقالت : لا أستطيع الخروج معكم ..

سأل الوالد وهو يتصنع الاستغراب : ولماذا ..؟!

قالت ببساطة وتصميم : لأنني لا أخرج بدون جلباب وخِمار ..

نظر إليها بضيق .. وقال بمرونة يحاول إقناعها :

ـ سنخرج في السيارة ولن يراك أحد .. هيا ولا تتشددي أكثر من اللازم .. فالإسلام مرن ويرفض التزمت ..

ابتسمت بوداعة وقالت لأبيها :

كلامك صحيح يا أبت .. ولكن هل أستطيع أن أضمن أن لا يراني أحد أبداً ..؟ قطب الوالد وتصنّع الانزعاج ، فقد تهيأ له أنها قد لانت ، ولو شدد عليها لاستجابت .. فقال محتداً :

ـ لا تعكري مزاجي يا ندى .. أما تكفيني متاعب العمل..؟ اشتهيت أن أخرج معكم لأستجم وأجدد نشاطي .. فلا تثيري المشاكل ..

نظرت إليه بحنوّ .. وقالت :

ـ آسفة جداً يا والدي .. أنا لا أقصد إزعاجك .. ولكنها مسألة قناعة .. وأنت قد عودتنا على جو من الحرية بحيث ينتقي الواحد منا ما يقتنع به من الأفكار والثياب .. وليس من عادتك أن تفرض عليّ أو على أختي مثلاً زياً معيّناً للخروج ولو أزعجك مظهرنا .

سكتت ندى وهي تعلم أنها ضربت على الوتر الحساس عند أبيها ... وفي هذه اللحظة دخلت أختها هناء وقد استعدت للخروج بثيابها التي وصلت في الأناقة إلى حد التعقيد ، وتبرجها الصارخ المثير ..

أعرض الأب عن هناء وقد بدا عليه الانزعاج .. وشعر بأن ندى على حق فيما تقول .. والتقت عيناه بعيني ندى وأدرك العتاب الرقيق الذي تنضحان به .. فتحرك قلبه لإنصافها .. ماذا فعلت حتى تتعرض لهذه المعاملة القاسية ..؟ بل إنها تتصرف بتعقل أكثر من كل إخوتها وتتفوق في دراستها أكثر .. بل وتكرم والديها وتساعدهما أكثر...قد تكون بالغت في التدين والحشمة الزائدة .. لكنها في سن الرشد ومن حقها أن تمارس الكثير من حرية التفكير والتصرف .. ثم إن أسلوب والدتها معها قد أدى بها إلى زيادة عزلتها عن الحياة والناس وكان ينبغي أن تزال كل العوائق التي تبعدها عن الناس والاحتكاك بهم كي تكتسب المرونة اللازمة وتعدل من تزمتها ..

هكذا كان الأب يقلّب الموضوع في ذهنه .. وكانت هناء تتأملهما وتنقل بصرها بينهما بضيق .. ثم قالت بنفاذ صبر :

ـ وبعد .. فهل عدلت عن الذهاب يا أبت ..؟! هل أقنعتك (شيختنا) بالتزام البيت والتنسك فيه ..؟!

آه .. هذه الناسكة .. إنها تُنغّص علينا مشاريعنا دائماً .. احتقن وجه ندى واندفعت الكلمات إلى فمها وهي تنظر إلى أختها باستنكار ... لكنها أمسكت نفسها في آخر لحظة وذكرت قول الله تعالى :

«والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين..».

فأشاحت بوجهها لتخفي أهدابها المبتلة وتستعيد هدوءها .. تحركت أعماق الأب فوجه إلى هناء نظرات صارمة..وقال بحدّة :

ـ هناء .. أرجو أن تحترمي نفسك أكثر من ذلك .. فانني لن أسمح بعد الآن بمثل هذه الأساليب في التعامل داخل الأسرة..

سكتت هنـاء على مضض ، وتشاغلت بإصلاح تسريحة شعرها .. واتجه الوالد على الفور إلى غرفة زوجته .. وانسحبت ندى إلى غرفتها وهي تتوقع مزيداً من التعقيد .. وإن اهتز قلبها بشيء مـن الأمل لما لمسته من موقف أبيهـا .. جلست ساكنة متوجسة..وقد تناهى إلى سمعها صوت حوار حادّ بين والديها.. لم يكن بالإمكان فهم كل كلماته .. وتساقطت دموعها وتنهدت بألم .. أحقاً صارت هي مصدر تنغيص وشجار في الأسرة ..؟! يا رب سلم .. واجعل لنا من كل ضيق مخرجاً ..

سكت الحوار بعد قليل .. وسمعت خطوات أبيها من جديد متجهة نحو غرفتها..ارتجف قلبها من جديد وهي تسمعه يناديها.. أسرعت تخرج إليه وهي تتساءل في نفسها .. هل تدل لهجته على الهدوء أم الحدّة ..؟

وأمام باب غرفتها رأته يمد يده إليها بالجلباب والخمار قائلاً:

ـ هيا لا تتأخري ..

هتفت من بين دموعها :

أبي .. أبي ... يا حبيبي يا أبتِ ...

طوقت عنقه بذراعيها ورمت برأسها على صدره تبكي .. ربت على رأسها بحنان وقال بتلطف :

ـ ندى ... أؤكد لك أن كل ما حدث حتى الآن إنما هو حبٌ وخوف" عليك .. فإن كنت لا تجدين السعادة إلا في هذا اللباس فالبسيه .. ولكن أثبتي لنا أنك سعيدة وتستمتعين بطيبات الحياة .. رفعت رأسها وقالت بحراره :

ـ ولكنني سعيدة جداً بطاعة الله يا أبت ..

ـ وهذه الآلام ... وهذا البكاء المستمر..وهذه العزلة.. ان هذا هو ما يدفعنا إلى الخوف عليك في هذه الطريق الجديدة التي سلكتها ..

ابتسمت وقالت وهي تحاول التخلص من الموضوع :

إنها دموع الفرح يا أبت ..

فضحك وقال :

دائماً تبكين من الفرح ..؟

ـ لا شك بأنني أتألم يا أبت ... ألا تتألم حين ترى التائهين يتخبطون بدون هدى ..؟ ألا تتألم حين ترى المرضى ينتحرون هرباً من الألم ..؟ ألا تتألم حين ترى شباب الأمة وأملها يتردى وراء المباذل والشهوات غافلاً عن مسؤولياته ..؟!

قال الأب مشفقاً :

ـ وهل ستحملين وحدك همّ الجميع ..؟!

لمعت عيناها ببريق التصميم وقالت :

ـ وسأقدم الخير للجميع ..

ـ ولكن يا بنيتي .. ليس سهلاً أن تستنكري ما تعود عليه الناس .. وان الناس لا يرحمون من يحاول تغيير مجرى التيار .. سيقف الجميع ضدك .. وستجدين نفسك وحيده .. غريبه ..

ـ سأكون غريبة ... سأكون واحدة من الذين قال عنهم رسول الله ﷺ :

« طوبى للغرباء .. الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي » ..

وعاشت ندى كقطرة من الندى تغسل قلوب المخطئين ، وتجلو صدأ نفوسهم ... وقلبهامتلىءبالأمل أن ترى الناس وقد ساروا في درب الانسان الذي أراده الله ... :

« أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى ، أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » ؟!!

ـ بل من يمشي سوياً على صراط مستقيم .

* * *

- ٤ -

ذات الدين

ـ السلام عليكم يا عم أبـا سعيد ...

التفت أبو سعيد نحو الصوت وقد تهلل وجهه المتغضّن واتعش عوده الذي أثقلته السنون .. انه الأستاذ صالح .. ومن غيره يحضر إلى الدائرة في وقت الدوام تماماً ؟.. أجاب وهو ينظر في الساعة :

ـ وعليكم السلام ورحمـة الله وبركاته .. لقد عودتني يا أستاذ صالح أن أضبط ساعتي على حضورك .

ضحك صالح وقال :

الوقت يا عم كالسيف إن لم تقطعه قطعك .. و (لقمـة العيش) ينبغي أن نأكلها حلالاً ..

كان أبو سعيد ـ آذن الدائرة ـ ينهي تنظيف الغرفة بإزالة الغبار المتراكم فوق المكاتب ..

ـ هل من مساعدة يا عم أبو سعيد ؟

ـ أعانك الله على كل خير يا بني ..

رمق أبو سعيد صالحاً بنظرات حانية معجبة .. لكم يتمنى لو كان له ولد مثل صالح .. الشاب المؤمن الأنيق الهين اللين المعشر ، الحريص على النظام واتقان العمل .. ولكن آه .. أين سعيد الآن ..؟ إنه لم يره منذ عشر سنوات .. منذ أن دهى به رفقاء السوء حتى صار ملازماً للملاهي يخدم فيها ، ويلعق من فضلاتها النتنة .. وأما ابنه الثاني قاسم فقد أكلته الكوليرا منذ سنوات كما أكلت غيره مـن ضحايا القمامة المبعثرة في شوارع المدينة .. ولم يبق لـه الآن من أولاده السبعة, إلا الصغيران محمد وعزيزة . فقد مات الثلاثة الآخرون في المهد دون أن يعرف السبب .. لقد قال له بعضهم : إن العلة في قلة التغذية وفقدان الرعاية الطبية .. لكنه يرجح أنهم ذهبوا ضحية عين حاسدة ... على كل حال فإن راتبه يكاد يضيق عن تدبير الحاجات الضرورية لزوجه وولديه . وخاصة بعد أن دخل ولـداه المدرسة وأخذت التكاليف تتضاعف ..

تنهد أبو سعيد وجمع أدوات التنظيف وهو يتمتم :

ـ يا مدبر الكون ...

كان يفكر كيف سيتمكن من حماية ولديه من رفقاء السوء.. إنه لا يريد أن تتكرر فجيعته فيفقد آخر قطعة من كبده ...ولكن كيف يتمكن من ذلك و (أولاد الحرام) منبثون في كل حارة يترصدون الكبار والصغار .. وطريق الشيطان محفوف بالمغريات

التي تجذب الجميع لترديهم في المهلكات ؟ وهل يستطيع هو ـ وقد بدأ الهرم يدب في أوصاله ـ أن يحميهم ويضمن لهم ما يحتاجون إليه من مال لمتابعة تعليمهم حتى يصبح محمد موظفاً محترماً كالأستاذ صالح ... وعزيزة معلمة قديرة في إحدى المدارس ؟.. يا الله لكم أصبحت الحياة قاسية حافلة بالهموم .. سقى الله أيام الآباء والأجداد .. لقد كانوا سعداء لا يعرفون طعم الهم .. أما نحن فكأن كل شيء يعاكسنا ..

ـ يا معين ..

حمل أبو سعيد أدواته وهمّ بالانصراف ..

اتبه صالح الذي كان منهمكاً في تدقيق المعاملات على صوت أبي سعيد وحركته .. فرفع نظره إليه ورأى سحابة الهمّ التي كست وجهه فهتف بود :

ـ الله يعطيك العافية يا عم أبو سعيد .. الحياة كلها جهاد والأجر عند الله للمخلصين ..

عادت بسمة الرضى إلى وجه أبي سعيد ، وارتعشت الكلمات على لسانه من التأثر :

ـ الله يبارك فيك يا أستاذ صالح .. إنك تجدد قوتي بكلامك ...

ـ ألا تحدثني عن همومك ياعم ..!

ـ حديث الهموم حديث يطول .. كفاك الله شر كل همّ وغمّ .

كان صالح يتطلع إلى الكهل بتأثر .. هذا الوجه الطيب المتعب .. ماذا يخبىء وراءه من متاعب وآلام ..؟ كم يتمنى أن يضع الأغلال عن قلبه .. كم يتمنى أن يعيد السكينة إلى وجهه .. لقد مضى عليه أسبوع منذ أن نقل إلى هذه الدائرة وكان أبو سعيد من الشخصيات التي لفتت نظره بوجهه المهموم وأدائه المتقن لواجباته .. وصمته الذي يغلب عليه .. حتى إن الموظفين يتندرون عليه ويدعونه مالك الحزين"...

ـ أرجوك ياعم أبو سعيد انتظرني عند انتهاء الدوام سننصرف معاً وتتحدث ..

قال أبو سعيد وقد بدا الارتياح على وجهه :

ـ إن شاء الله .. حياك الله يابني .

مضت ساعة في الدوام . .وبدأ الحر يزحف بثقله ليعطي الغرفة جواً خانقاً .. تنفس صالح الصعداء وهو يجمع الأوراق التي أنهاها .. تطلع إلى المكتب المجاور الذي ما زال فارغاً ، ونظر في ساعته .. لم يبق لإنهاء هذه المعاملات سوى توقيع جاره الأستاذ جمال .. عسى أن يأتي قبل أن ينهمر سيل المراجعين .. لقد تأخر اليوم أكثر من عادته .. ولم تمض لحظات حتى سمع صوت أقدام عجلى .. ودخل جمال مشعث الهيئة لا هثاً منتفخ العينين يتفصد العرق من وجهه ..

ـ صباح الخير ..

ابتسم صالح وقال في دعابة :

ـ أهلاً بالأستاذ جمال .. أشرقت الأنوار .. الحمد لله الذي وصلت أخيراً فنحن بحاجة إلى توقيعك الكريم ..

تنهد جمال وهو يجلس إلى مكتبه ...

ـ آه .. حياة كلها فوضى .. الذي ينام في الثانية بعد منتصف الليل متى يستيقظ ؟!

قال صالح ضاحكاً وهو يناوله ملف الأوراق :

ـ سأهديك يوماً منبهاً ذا جرسين ..

ضحك جمال بفتور وقال :

ـ متشكر .. لا فائدة .. إن (المدام) لا تسمح لجرس المنبه أن يزعجها فهي توقفه (على النائم) ..

تثاءب جمال وهو يتصفح الأوراق وألقى بها على المكتب قائلاً :

لنشرب القهوة أولاً ..

ومد يده فقرع الجرس .. ثم استرخى في مقعده ... أطل العم أبو سعيد بوجهه المأساوي ..

ـ قهوة من فضلك يا أبا سعيد .. لي ولجاري المجد الوقور ...

وأشار إلى صالح ساخراً ..

ابتسم صالح وقال :

ـ أشكرك .. لا أريد قهوة ..

أومأ أبو سعيد برأسه منصاعاً وانصرف . التفت جمال إلى صاحبه : هل شربت قهوة الصباح ؟

ـ نعم ..

ـ لا تقل بأنك تناولت إفطارك أيضاً ..؟!

رفع صالح رأسه مستغرباً ونظر إلى جمال مستفسراً .. تنهد جمال وقال : لا تعجب ياصاحبي .. إنني أغبطك .. فكم أشتهي أن أكون نظاماً مثلك .. كم أتمنى أن أشرب قهوة الصباح في شرفة بيتي .. وأتناول إفطاري منسقاًعلى طاولة الطعام مع زوجتي وأولادي لا على المكتب بين الأوراق والمعاملات .. كم أتمنى أن أجد ملابسي جاهزة في الصباح أمامي بدلاً من أن أضيع من وقتي نصف ساعة وأنا أبحث عنها في الخزانة و(الدولاب) وهنا وهناك.. تأثر صالح من لهجة صاحبه وسأله بود :

ـ وما الذي يمنعك من تغيير هذه الفوضى ..؟!

ـ وكيف أغيرها ..؟!

ـ قل لي ياصاحبي:لماذا تنام في الثانية بعد منتصف الليل؟!

تنهد جمال من جديد وقال :

ـ لأنني أهرب من البيت إلى المقهى .. وهناك أنسى نفسي وهمي وعملي مع الأصحاب و (برتية الطاولة) ...

ـ ولكن هروب مؤقت .. ونسيان ظاهري ..!!

هز جمال برأسه موافقاً :

ـ أعرف ذلك يا صاحبي .. ولكن ما العمل ..؟ ليس أمامي غير هذا الحل .. دخل أبو سعيد بالقهوة ووضعها على مكتب جمال ..

ـ أشكرك يا أبا سعيد .. وأرجو أن تتذكر إفطاري كالعادة بعد ساعة . ابتسم أبو سعيد قائلاً :

(تكرم) .. سيأتيك (كالعادة) ..

وانسحب خارجاً من الغرفة .. تابع صالح حديثه باهتمام :

ـ ولم لا تقضي المساء في البيت مع زوجتك وأولادك ..؟! وهل هناك أسعد من هذه الجلسات العائلية ..؟! ألا يسرع إليك ابنك مستبشراً والبراءة تشع من وجهه ، ومجلته في يده يسألك عن بعض ما لم يفهم فيها ..؟! وابنتك تتسلق ركبتك وتتخذ مجلسها في حضنك ، وترفع عينيها الطاهرتين إليك .. ويداها الرقيقتان تحتضن بهما دميتها بحنان قائلة :

ـ انظر يابابا .. كم هي جميلة وظيفة ابنتي .. إنهم أولادك سيتحلقون حولك ويمطرونك بقبلاتهم الناعمة .. إنهم بحاجة إليك لتحكي لهم حكاية ، ولتزرع في قلوبهم الغضة سنابل الحب والعطاء .. لتغرس في نفوسهم كل خلق نبيل .. لتفتح عقولهم

على كل معنى كريم للحياة .. كيف تحرم نفسك يا أخي من دفء عشك ..؟! وتحرم عشك من حنانك ورعايتك ..؟!

ـ على رسلك ياصاحبي .. جعلتني أترحم على أفلاطون ومدينته الفاضلة الخيالية ..!! قال : جو عائلي دافىء وعش هانىء ..؟!

أرجوك يا سيد صالح .. لا تنس أننا نعيش في المستنقع الآسن .. تتلوى بين ديدانه وتلسعنا هوامه ... فكيف تطلب منا أن نحلق في أجوائك الرائعة وعيوننا يعميها الوحل ..؟!

كان جمال يتحدث بسخرية مفعمة بالمرارة .. وصالح يستمع إليه متأثراً ويفكر .. أي جو عائلي خانق يجعل هذا الرجل يتصرف ويتكلم بهذا الشكل ؟ أراد أن يخفف عنه .. وأخذ يبحث في ذهنه عن الكلمات المناسبة .. لكن جمال لم يكن بحاجة إلى الكلمات .. وإنما كان في أمس الحاجة إلى من يسمع له ... واندفع جمال يشكو :

ـ كيف أقضي السهرة في البيت ..؟! إن زوجتي لها زياراتها واستقبالاتها مع الأهل والمعارف والجيران .. فهي غالباً ما تخرج في المساء وتترك الأولاد ليعيثوا في البيت فساداً .. من صراخ إلى شجار فإذا هدّهم التعب ناموا كيفما اتفق وأينما اتفق .. بدون طعام العشاء .. فإذا بقيت السيدة في البيت فهي إلى جانب التلفاز تنتقد هذه .. وتفتن بفستان تلك .. وتندب

حظها الذي لا يمكنها من أن تشتري وتلبس مثل هذه الممثلة ، وتصفف شعرها مثل تلك .. وما أسرع ما يضطرب الموقف لينصب نقمة على رأسي .. ولا عجب .. فليس هناك من يستطيع أن ينافس زوجتي في اختلاق النكد وتعميمه على من في البيت .. ولقد تعلّم الأولاد أسلوبها .. فلا هدوء ولا سكينة .. ولا كلمة دفء وحنان . .فكيف لا أهرب من هذا الجحيم ..؟!

كان صالح يستمع بإشفاق . .وتساءل :

ـ أتراك يا أخي قد أسأت الاختيار عند الزواج ..؟

نظر إليه جمال باستغراب وقال مستنكراً :

بل إنها جميلة ومن عائلة معروفة في البلد ومتعلمة .. معها الشهادة الثانوية قال صالح باستغراب :

ـ ألم تسأل ياصاحبي عن الدين والأخلاق ..؟!

فاحتد جمال مستنكراً :

ـ وهل المتدينة أفضل حالاً ..؟! لا تخطىء ياصاحبي .. إن كثيراً من أصحابي في المقهى هاربون من زوجاتهم المتدينات.. فإذا كانت غير المتدينة ماكرة متسلطة لا يهمها إلا مظهرها ومركزها بين صاحباتها .. فان المتدينة جاهلة .. لا تفهم الحياة الزوجية والاجتماعية .. هز صالح رأسه بأسى وقال :

ـ ومن قال لك إنني أعني هذا النوع من التدين ..؟!

ـ من تعني إذاً ؟!

ـ إنني أتحدث عن المرأة المؤمنة .. تلك التي تضع نصب عينيها رضى الله فتتقي الله في زوجها وأولادها .. أتحدث عن تلك التي وصفها رسول الله بأنها : إن نظرت إليها سرتك بحسن استقبالها وحفاوتها .. تتودد إليك وتعرف كيف ترضيك .. وإن غبت عنها فأنت في قلبها تصون سمعتك وتستر عيوبك .. فأنت آمن على عرضك مطمئن على حسن تدبير بيتك ومالك ..

ـ عدنا من جديد إلى المثاليات ..؟! بالله عليك ياصاحبي حدثني بأمور واقعية ..

ابتسم صالح وقال بنبرة صادقة :

ـ صدقني إنها صورة واقعية .. ولكنك أنت لم تبحث عن هذا الصنف واندفعت وراء المظاهر البراقة ..

ـ يخيل إلي أنك سعيد في بيتك .. فأخبرني كيف وُفِّقْتَ في الاختيار ؟

ـ الأمر بسيط بالنسبة لرجل مثلي يهتم باللب ولا يلتفت إلى القشور .. لقد كانت أمي تريد لابنها مثل كل الأمهات فتاة بارعة الجمال . . بنت عائلة محترمة .. لكنها عدلت عن رأيها عندما لمست تصميمي على الزواج من فتاة مؤمنة واعية تفهم الحياة وتفهم دينها ودورها في البيت والمجتمع .. ولا يهمني بعد ذلك إن كان

المظهر متواضعاً .. والشكل عادياً .. والعائلة (مستورة) .. لقد عرضت علي فتيات كثيرات تتوفر فيهن المقاييس المادية .. لكنني أعلنت لها أنني سأقاطع فكرة الزواج كلياً إن لم تنظر إلى الأمر من خلال مقياسي الذي استقيته من رسول الله ﷺ « فاظفر بذات الدين تربت يداك .. »

ـ وبعد هل وجدتها ..؟!

ـ نعم .. وجدتها .. وعرفتها من حديثها وأفكارها ومن ثناء ذوي الدين والخلق عليها . .ولم تدرك أمي ميزتها إلا بعد أن قطعنا خطوات في إجراءات الزواج . .وبدأت تلمس فيها بشكل عملي نفسية المؤمنة التي تعطي الأولوية للتقوى والخلق الكريم وتؤثر السماحة واليسر في كل شيء .. لقد رفضت أن يحدد أهلها قيمة المهر .. وقالت إن الله تعالى قد جعل المهر هدية يقدمها الزوج عن طيب خاطر :

« وآتوا النساء صدقاتهن نِحْلَة » .

فينبغي أن يحدده ويقدمه هو ...

قاطعه جمال مستغرباً :

ـ وكم قدمت لها مهراً ..؟!

ـ ألفي ليرة سورية ..

ـ وهل قبلت ..؟!

ـ بل تنازلت عن نصفه أيضاً وردته إليّ .. وأردت أن أعترض . فرددت قوله تعالى :

« فإن طِبْنَ لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ..»

ـ أتعني أنها اكتفت بألف ليرة فقط ..؟! وماذا تفعل الألف ليرة ؟! وما (الجَهاز) الذي اشترته للبيت ..؟!

ـ ليست المرأة مكلفة بشراءأي(جَهاز)للبيت في الإسلام.. ومهرها هدية لها تفعل به ما تشاء .. ومع ذلك فإن مهر زوجتي قد عاد علينا بالنفع جميعاً .. فقد أعدت به زاوية بسيطة حبيبة إلى قلوبنا وضعت فيها مجموعة من الكتب القيمة المنوعة ..

كان جمال يستمع مأخوذاً .. وتساءل :

ـ فكم كتبوا عليك مهراً متأخراً .. ؟

ابتسم صالح وقال :

ـ ولا ليرة .. لقد رفضت زوجتي فكرة المتأخر بإصرار .. واستطاعت أن تقنع أهلها بموقفها .. إنها تشمئز من فكرة المتأخر لأنها مبنية على انعدام الثقة وإعطاء المال أكثر مما يستحق في العلاقات الانسانية .. ثم إن الإسلام قد وضع للمرأة حقوقاً مادية ومعنوية كافية عند الطلاق أو موت الزوج ، فلا لزوم لهذا الضمان الإضافي الذي ابتدعناه ، فعبر عن نفسية المتاجرة والاستغلال التي نطبع بها كل جوانب حياتنا الاجتماعية .

ـ الله أكبر .. لقد كتبوا عليّ خمساًوعشرين ألف ليرة متأخراً لزوجتي .. حتى صارت حياتي الزوجية كابوساً مزعجاً لا أعرف كيف أخرج منه ويالها من حياة زوجية ـ تافهة ـ لا يمسكها إلا العجز عن دفع المؤخر ـ المؤجل ـ من المهر ..!!

ـ إن هذا (الروتين) السخيف الذي تواضعنا عليه ـ أعني المؤجل من المهر ـ ليكشف عن فقدان الثقة بالزوج .. وهي أول إهانة يستفتح بها حياته الزوجية ـ لو كان يدري ـ وفقدان ثقة الزوجة بنفسها أيضاً .. فهي لا تثق بمعرفتها وقدرتها على القيام بحياة زوجية ناجحة فتلجأ إلى هذا الضمان المادي لتعزز به ضعفها .. إنه أسلوب هزيل يلجأ إليه الضعفاء كما تقول زوجتي ..

انقطع الحديث بدخول الآذن أبو سعيد وهو يحمل إفطار جمال .. وضعه على المكتب وانصرف مشكوراً من جمال .. نظر صالح في ساعته :

ـ آه .. الوقت يمضي بسرعة .. لقد بلغت الساعة العاشرة ..!! هزّ جمال رأسه بلا مبالاة وقال :

ـ الوقت .. ليذهب إلى الجحيم ..

ـ ولكن معاملات الناس ياصاحبي ..! أرجو أن تتناول إفطارك بسرعة كي توقع الأوراق التي وضعتها لك قبل أن يأتي أصحابها لاستلامها ..

ـ ولم العجلة ..؟! يمكن أن نعدهم باستلامها غداً أو بعد غد .. نظر صالح إلى جمال مغتاظاً . .واستمر جمال بتناول طعامه ببرود .. وشعر صالح بعدم جدوى الحديث .. فتركه وانكب على عمله ..

دق جرس الهاتف .. ورأى صالح زميله مشغولاً بطعامه فرفع السماعة :

ـ نعم ..

فانتهى إلى سمعه صوت نسائي يقول :

ـ الأستاذ جمال من فضلك ..

ـ لحظة واحدة .

وضع صالح السماعة على المكتب وأشار إلى جمال قائلاً :

ـ المكالمة لك ياسيد جمال .

ـ من يريدني ..؟

ـ لا أدري .. ولكن الصوت نسائي ..

ـ أف .. لاشك بأنها (المدام) قد قامت من نومها أخيراً.. تناول جمال السماعة متثاقلاً :

ـ نعم ..

ردت زوجته :

ـ صباح الخير يا أستاذ جمال .. (عاش من رآك) ..!

قاطعها جمال ساخراً :

ـ يا صباح الفل .. (صح النوم يا مدام) ..

ـ هل لي أن أعرف متى عدت إلى البيت البارحة ..؟

ـ بعد أن رجعت أنت بقليل ..

ـ لكنني اضطررت إلى التأخر قليلاً فقد كانت السهرة عائلية في بيت عمي ولم يسمحوا لأحد بالانصراف إلا بعد انتهاء العشاء .. احمر وجه جمال واحتد صوته :

ـ وكيف حال أولاد عمك الكرام .. (شباب الغريبة)..

صاحت الزوجة مغضبة :

ـ أتسخر من أهلي وأولاد عمي ..

ـ لا لا .. لا تغضبي ياعزيزتي .. ولا تدعي مزاجك يتعكر ..

ـ جمال ..! لماذا تستفزني ..؟!

وشعر جمال بالخجل من هذه الموضوعات الخاصة تطرح في دائرة عمله فقال متصنعاً الهدوء :

ـ دعي هذا الموضوع فسنتحدث عنه فيما بعد .. وقولي ماذا تريدين ..؟

ـ أريد أن أقول بأنك قد خرجت من البيت ولم تسأل عن

حاجاتنا وماذا نأكل .. وما يلزمنا .. نعم ما الذي يهمك في هذا البيت ... إنه مجرد فندق تأوي إليه في آخر الليل ..

ـ ألم تتعود على أن تتّصلي (بالخضري)هاتفياً، وتطلبي منه ما تحتاجين ؟!

ـ ولكن (الخضري) باع ما عنده منذ الصباح ..

ـ وما ذنبي أنا إذا كانت (الست بدور شمستها عالية)..؟!

ـ حسناً .. أحضر لنا معك طعاماً جاهزاً من المطعم ..

ـ آسف يا سيدتي .. الميزانية لا تتحمل .. أنسيت أن الراتب قد طار معظمه وراء الفستان الذي اشتهيته ..؟!

ـ لا تحزن ياعزيزي .. لقد كان مثار إعجاب الجميع البارحة .. قل بالله عليك .. أليس رائعاً ..؟!

توهج وجه جمال من جديد وهو يقول :

ـ لا تنسي يا (مدام)..أنني آخر من يرى وآخر من يعلم..

واستدرك قائلاً :

ـ قلت لك سنتحدث في ذلك فيما بعد .. مع السلامة .

وهمّ بإقفال السماعة فهتفت :

ـ سأدبر طعام الغداء مما عندي .. ولكن لا تنس أن تأتينا بفاكهة .

قال بتذمر :

ـ تحت أمرك .. مع السلامة ..

وأغلق السماعة بضيق..ويده ترتجف من التوتر..ويردد:في بيت عمها كانت وبفستانها الجديد الذي لم أره بعد عليها .. وأمام أولاد عمها المائعين المخنثين .. في سهرة عائلية ..؟!

أمسك بالأوراق .. وحاول أن يحصر ذهنه بعمله .. لكنه لم يستطع لأن صورة السهرة العائلية لا تريد أن تفارق ذهنه.. هناك حيث تصيح الموسيقى الغربية وتدور حلقات الرقص..وترن الضحكات الناعمة وتنطلق الهمسات والغمزات .. ومن يتجرأ أن يستنكر هذه السهرات العائلية (البريئة) ..؟! هل تريدون قطع الأرحام ..؟!

وعلى المكتب الثاني كان صالح يطرق مقطباً شارداً .. لقد تذكر عندما سمع كلمة(الخضري)من زميله أنه قد نسي أن يمرعلى (الخضري) ويوصيه بحاجات البيت..لقد استوقفه جاره في الطريق والخجل يقطر من وجهه وذكر له أنه يعاني من أزمة مالية،واقترض منه مبلغاً من المال .. وشكا إليه سوء تدبير زوجته وتبذيرها .. واستشاره كيف يجعلها تقدر ظرفه وتشد من أزره .. فنصحه أن يحاول بحث الموضوع معها بالتي هي أحسن ووعده بأن يدفع زوجته هناء إلى زيارتها ونصحها بشكل عام ودون أن تشعر بأنها على علم بشيء فذلك أحرى أن يؤثر .. وهكذا وجد نفسه

أمام الحافلة وذهنه مشغول بمشكلة جاره والوقت يكاد يسبقه .. فنسي وركب الحافلة إلى عمله مباشرة . والآن .. ماذا ستفعل زوجته هناء يا ترى .. ؟ ومن المؤسف أنه ليس لديه في البيت هاتف ليتحدث إلى زوجته ويعتذر منها ..

مسح صالح العرق عن جبهته وقال في نفسه :

ـ على كل حال حصل ما حصل ولا ينبغي لموضوع الطعام أن يشغل بالنا إلى هذا الحد .. وسنأكل أي شيء يتيسر لنا ..

قاربت الساعة الثانية بعد الظهر .. وأقفرت الدائرة إلا من الثلاثة . صالح يكمل آخر ورقة على مكتبه .. وجمال مسترخ في مقعده مستسلم لشروده .. والآذن أبو سعيد ينتظر صالحاً حسب الموعد .. وفي الثانية تماماً كان صالح قد أنهى ما بين يديه من الأوراق ووضعها في أدراج المكتب بعناية .. ونهض من مكانه يشد جسمه الذي يبس من الجلوس .. وقد بدا على وجهه الارتياح والرضا .. ولفتت نظره جلسة زميله وشروده فوقف يتأمله برهة وهو متألم لحالة مسكين .. إنه محروم من سكينة بيت الزوجية وأمنه .. إنه لا يحس بحلاوة العودة إلى البيت بعد يوم حافل بالعمل .. ومساكين أولاده الذين حرموا من حدب الأب وحنانه وتضحية الأم وإيثارها .. إنهم يتيهون بين طرفي نقيض في جو مشحون بالتوتر .. ولم يطاوعه قلبه أن ينصرف قبل أن يوجه كلمة طيبة إلى زميله ، فتقدم منه وقال باخلاص :

ـ قم ياصاحبي .. كان الله في عونك .. قم واذهب إلى بيتك وحاول أن تنسى مرارة الماضي .. وازرع من جديد بذور الود في جنباته .. واسع نحو أطفالك فقد طال انتظارهم واشتياقهم إليك .. أعطهم من نفسك ووقتك وستسعد بحلاوة العطاء ..

سكت جمال ونظر إلى زميله لحظة . .وامتلأت نفسه بالحنين إلى جو عائلي حبيب .. وغامت عيناه .. فحول نظره عن زميله وقام من مجلسه وتوجه نحو الباب وهو يردد بصوت خافت:

ـ أشكرك .. سأحاول ... إلى اللقاء ..

خرج جمال إلى الشارع وهو يفكر .. نعم إنه سيحاول أن ينسى ما مضى وسيبتعد عن أسباب الشجار مع زوجته ..سيترك جانباً موضوع سهرة البارحة ، وسيدخل إلى البيت متفتح القلب متجدد النفس .. بدأ الارتياح على وجه جمال .. وحدث نفسه قائلاً :

ـ والآن لنبحث عن بعض الفاكهة التي تعجب زوجتي وأولادي ..

واتجه نحو باعة الفاكهة ، فابتاع بطيخة وكمية من الدراق.. ومشى نحو موقف (الباص) مثقلاً بحمله .. وهناك انحشر بين الزحام محاولاً الصعود .. .الحر يكاد يزهق الأنفاس ..ورائحة العرق تزخم الأنوف .. والناس يتدافعون ويتصايحون ..تبللت ثيابه من العرق المتفصد من جسمه .. ودفعه أحدهم من الوراء

فانضغط كيس الدراق • وسال عصير بعضها فأتلف أطراف الكيس الذي أصبح مهدداً بالتمزق ••

التفت إلى الوراء وهو يشتم ويلعن •• فانبرى له بعضهم بالرد (المناسب) وارتفعت الأيدي مهددة •• واحمرت الوجوه، وكادت الواقعة تقع •• لو لا أن تدخل (أولاد الحلال) في إطفاء نارها •• وصعد جمال أخيراً وهو يجاهد حمله أن لا يتبعثر من يديه •• واستمر نصبه طوال الطريق ، وهو يحاول أن يحافظ على توازنه •• وهكذا عاوده الضيق والانقباض •• ونزل من (الباص) أخيراً فتنفس الصعداء قليلاً وحاول أن يمحو آثار الضيق من نفسه •• ها هو ذا مدخل البناء الذي يقطن فيه • •تنهد •• لابد أن يصعد درجات السلم إلى الطابق الثالث حتى يصل إلى بيته•• بدأ بالصعود وهو يعلل النفس •• عسى أن تكون زوجته أو أحد ولديه قد رآه من النافذة فيسرع في فتح الباب ومساعدته••ولكن خاب أمله •• فها هو قد وصل إلى البا ب لاهثاً •• والباب ما زال مغلقاً ••• توقف لحظة يسترد أنفاسه ، ثم اتكأ بكتفه على جرس الباب فانطلق الرنين برهة •• وسمع صوت زوجته تنادي : افتحوا الباب يا أولاد •••

ومع ذلك فإن الباب ما زال مغلقاً •• وضع جمال البطيخة على الأرض وأخرج مفتاحه من جيبه وفتح الباب •

كان صوت زوجته قد بدأ ينطلق بالشتائم والدعاء على الأولاد .. وعندما دخل أطلت قادمة من المطبخ في(مريلة) العمل بوجه مكفهر وشعر مبعثر .. ولما رأته نظرت إليه باستنكار وقالت:

ـ أهذا أنت ..؟! ولم لَمْ تفتح بالمفتاح من الأول ..؟! وأحس بشرايينه تكاد تنفجر .. وأوشك أن يرمي البطيخة في وجهها..لكنه تماسك واكتفى بنظرة غاضبة ، فلم تأبه له.. دخل المطبخ فوضع حمله على الطاولة واتجه إلى الماء فغسل رأسه ووجهه .. وإذ شعر بشيء من الانتعاش والتجدد .. توجه إلى غرفة أولاده وأطل من الباب فرأى اللعب مبعثرة على الأرض وأغطية الأسرة مرمية هنا وهناك وابنته سمر قائمة في وسط الغرفة تنظر في أرجائها كأنها تبحث عن شيء .. ناداها بود : مالك يا سمر ..؟! عن أي شيء تبحثين ..؟!

التفتت إليه مستغربة لطفه وبشاشته ، ثم أقبلت عليه مسرورة وقالت : أبحث عن سامر يا بابا .. لقد جاء دوره في اللعب كي يختبىء ولم أفلح في العثور عليه .. ابتسم جمال وهو يتذكر أيام طفولته . .وسألها :

ـ لمَ لَمْ تلبي نداء ماما عندما طلبت منكم أن تفتحوا الباب ..

قالت سمر ببراءة :

ـ لا أستطيع .. لقد حذرني سامر من أن أفتح عيني أو أتحرك من مكاني قبل أن أكمل العد إلى العشرين حتى ينتهي من الاختباء ..

ضحك جمال وربت على كتفها و نادى :

ـ سامر أخرج من مخبئك .. لقد اعترفت سمر بأنها عجزت عن العثور عليك ..

خرج سامر من تحت السرير ضاحكاً . ونزع عنه غطاء (المخدة) .. هتفت سمر مبهورة :

ـ يالك من شقي..لقد بحثت عنك تحت السرير فظننتك (المخدة) .. التفت جمال إلى ابنه معاتباً :

ـ وأنت لم تفتح الباب لأنك مختبىء ..؟! هتف سامر :

ـ طبعاً يابابا .. أنا لا أريد أن تسبقني سمر ..

نظر جمال إلى ولديه بهدوء .. وابتسم .. إنهم أطفال في دنياهم البريئة .. فليمرحوا كما يشاؤون قبل أن تأتيهم الهموم والمسؤوليات . ولكن لا ينبغي أن يتعودوا على الفوضى بهذا الشكل ... التفت إليهم قائلاً :

ـ أترين ياسمر .. لو كانت (المخدة) في مكانها على السرير لما صعب عليك العثور على سامر .. وأنت يا سامر ألم تتعثر بهذه اللعب المبعثرة أثناء محاولتك إكمال اللعبة ..؟

سكت الولدان باقتناع .. فتابع جمال :

ـ ما رأيكما ..؟ سمر تعيد ترتيب الأَسِرَّة،وسامر يرفع اللعب وينسقها في خزانتها ... وبعد ذلك انبعاني إلى المطبخ فقد جئتكما بفاكهة تحبانها ...

أسرع الولدان إلى تنفيذ الاقتراح .. وانقلب جمال باتجاه المطبخ راضياً من هذه البداية الحسنة .. والآن ليتناس استقبال زوجته المروع له وليحاول أن يبدو هادئاً .. دخل إلى المطبخ .. لم تلتفت زوجته إليه ..كانت تضع الطعام على المائدة ووجهها ينضح بالضيق والغضب ..

قال بتودد كيف حالك ...؟

ردت بتذمر :

ـ حالي..؟! كما ترى خادمة في البيت لا أكثر ..

ـ ولماذا ..؟!

ـ أولادك يملؤون البيت بالفوضى والصياح .. ولا أطمع منهم بأية مساعدة .. أقضي نهاري في البيت تعبة وبعد ذلك تدخل أنت إلى البيت كالامبراطور تنظر إلي شزراً ..!

قال بلهجة عاتبة :

ـ لقد أضناني الحر في الخارج فصبرت معللاً نفسي بوجه مشرق يستقبلني ويدٍ حانية تمتد لمساعدتي ..

ـ إن أعباء البيت والأولاد تثقلني وترهق أعصابي ..

ـ هوني عليك .. فكل الأمهات يتعبن في أولادهن ..

التفتت إليه محتدة وقد وضعت يديها على خصرها :

ـ الأمهات لديهن خادمات ... إلا أنا فسيئة الحظ دائماً..

كاد يفقد أعصابه .. لكنه ضغط على نفسه وغير مجرى الحديث . فاتجه إلى كيس الدراق يفرغه في طبق وقال :

ـ أرجوك يا عزيزتي اقطعي البطيخة وضعيها في الثلاجة .

سكتت الزوجة على مضض وتناولت البطيخة فقطعتها فإذا بها باهتة اللون شاحبة .. التفت إليها جمال وقال :

ـ كيف هي .. أحمراء ..؟

قالت ساخرة :

ـ بل شقراء ..

ونظرت إلى طبق الدراق فرأت بعض الحبات مهروسة فازداد غيظها وقالت :

ـ كعادتك .. لا تحسن الاختيار في أي شيء ..!

نظر إليها بصبر نافذ..هذه المرأة المشاكسة المعتدة بنفسها.. التي لا تعرف كيف تكون شريكة عمر ولا تحسن أن تكون أماً واعية رؤوفاً ولا ربة بيت مدبرة ..!! قال باقتناع :

ـ معك حق .. إنني لم أحسن الاختيار ..

اتجه إلى المائدة وجلس إلى الطعام .. التفت إليها فرآها قد عادت إلى تنظيف الأطباق وغسلها .. فقال :

ـ دعي هذه الأعمال إلى ما بعد وتعالي تناول الطعام ..

ردت بلا مبالاة :

ـ يمكنك أن تأكل فقد سبقتك وتناولت طعامي .. ولا بد من إنهاء عملي ..

تنهد جمال وقال :

ـ حسناً .. والأولاد هل أكلوا ..؟

ـ لا تخف .. إنهم (كالحيوانات) يجترون في كل ساعة ..

ـ وأين أمهم لتعلمهم النظام وترك الفوضى في كل شيء ..؟!

التفتت إليه صائحة :

ـ قلت لك إن أمهم مرهقة بالأعمال .. ألا تكف عن إثارتي ..؟! لقد انهارت أعصابي .. وأحس برأسي يكاد ينفجر.. أنا ابنة العائلة المحترمة أكدح طول النهار ..!! بينما بنات عمي وجاراتي وصديقاتي عندهن خادمات ..!! كلهن أقل مني جمالاً ومركزاً .. ولكن حظي سيء ..

لم يعد بإمكان جمال أن يحتمل أكثر .. فقال بحزم :

ـ اسمعي يا زوجتي .. لقد سكت كثيراً وتحملتك طويلاً . والآن لم أعد أطيق هذا النكد الدائم في البيت وهذه الفوضى .. وإني أحذرك من عاقبة أعمالك .. إن الأولاد بحاجة إلى حنانك ورعايتك بدلاً من غضبك وانشغالك عنهم بالزيارات والسهرات.. قاطعته ثائرة :

ـ أعرف أن هناك من يعلمك هذا الكلام .. لقد قضيت سهرة البارحة عند أهلك .. فوسوست لك أمك بأنني سيئة التدبير ومهملة .. ثار قائلاً :

ـ لا تسيئي الظن فأهلي وأمي لم أرهم منذ أسبوع .. وليس من عادتهم أن يتحدثوا عنك بكلمة ..

صاحت الزوجة منتحبة :

ـ أنا سيئة الظن والأخلاق ..؟! بل إنهن أمك وأخواتك الماكرات .. لا يدعنَ من شرهن أحداً ..

انهارت أعصاب جمال . فقام لتوه ولم يذق لقمة واحدة . وخرج من البيت وصفق الباب خلفه بشدة .. وانطلق على غير هدى .. بينما زوجته مستمرة في نحيبها :

ـ ما أشد أنانيته ..!! يتركني لمتاعبي ويخرج كي يلهو ويتمتع .. يا لحظي السيء ..!!

نظرت هناء ـ زوجة صالح ـ في ساعتها .. حسناً إنها تشير إلى العاشرة . لقد انتهت من ترتيب البيت وتنظيفه . وهاهما الصغيران بلال وسمية يسرعان إلى الحمام بعد أن ساهما في العمل مع أمهما .. إنهما يحبان اللعب بالماء ، وخاصة في مثل هذا الحر .. ولكن لو تركا على سجيتهما لملآ الحمام بالماء وبدّداه عبثاً وأفسدا نظافة البيت .. كما أن هناء لا تريد أن تنغص سعادة هذين الطفلين الظريفين اللذين كانا يتنافسان في مساعدتها .. هتفت هناء :

ـ انتظراني .. سنلعب معاً بالماء .

وأحضرت لولديها ملابس للبيت نظيفة .. وفي الحمام جلسا على الكرسي الخشبي المنخفض .. ووضعا قدميهما في الطست الذي ملأته الأم بالماء .. وأخذت هناء تحدثهما عن البطة البيضاء كيف تسبح في الماء وكيف تغمس وجهها فيه وتنظف جناحيها وريشها الأبيض ..

وهكذا نظف الولدان وجهيهما وأطرافهما بالماء والصابون وهما يستمعان إلى حكاية البطة البيضاء ويتضاحكان ..

ـ والآن يا بلال .. هذه ملابسك النظيفة خذها واستبدل بها ملابس العمل في الغرفة ولا تنس أنك نظيف تحرص على نظافة البيت فتمسح قدميك بمنشفة الأرض التي تقف باتنظارك أمام الحمام .. هتف بلال وهو يخرج :

ـ أنا سأسبقكم ..

نظرت سمية إليه بضيق .. فأسرعت أمها تقول لها :

ـ لن يسبقك يا سمية النشيطة .. قفي يا حبيبتي في هذه الزاوية النظيفة من الحمام واخلعي ملابس العمل واستبدلي بها النظيفة ريثما أنظف الحمام وأتوضأ ..

وبعد قليل كانت هناء تقف بخشوع بملابس الصلاة تؤدي ركعات الضحى وولداها من حولها يحاولان تقليد حركاتها ويتمتمان مثلها .. وكم يحلو لسمية أن تجلس في حضن أمها عند قراءة التشهد .. لكن أخاها بلالاً الذي يكبرها في السن كان ينهرها كي لا تشغل أمها ..

أنهت هناء صلاتها والتفتت إليهما باسمة وضمتهما إلى صدرها قائلة :

ـ يا حبيبيَّ .. سأعلمكما في المساء كيف تتوضآن وتصليان لله ..

ورفعت إلى الله يدين ضارعتين وعينين مخضلتين :

ـ « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين إماماً » .

انصرف بلال إلى مجلاته وقصصه المصورة .. وشغلت سمية بدميتها تناغيها وتبدل لها ثيابها .. وهناء تفكر .. لقد بلغت الساعة الحادية عشرة ولم يرسل (الخضري) أي شيء .. !هل نسي صالح أن يمر عليه ..؟! أم أنه لم يجد عنده شيئاً يعجبه ..؟

إن الطفلين في مثل هذا الوقت يتناولان وجبة خفيفة .. فكرت وقررت أن تحضر لهما طبقاً من البطاطا المقلية .. وبعد ذلك ستتدبر طعام الغداء بشيء من المعكرونة وبعض شرائح اللحم مع البطاطا .. إنها وجبات مغذية وسهلة التحضير ويحبها صالح والأولاد .. وستصنع شراباً يغني عن الفاكهة وينعش في الحر ..

ومضت الساعات مليئة بالعمل والمرح مع الأولاد .. فلما انتهت هناء من عملها ، فوضعت أمام بلال لعبته المفضلة (الميكانو) ولسمية مكعباتها ذات الألوان البهيجة .. وقالت لها وهي تشير إلى الصورة التي وضعتها أمامها :

ـ انظري كم هو لطيف هذا الأرنب .. إنه يمرح في الحقل الأخضر ويأكل ما يحلو لـه .. هل تعرفين كيف تركبي صورته بهذه المكعبات ..؟ هزت سمية رأسها بسرور موافقة . وانهمكت في محاولتها ..

أخذت هناء كتاب « كيف نعاون الإخوة والأخوات على التفاهم » ـ من سلسلة الدراسات النفسية ـ وجلست تقرأ فيه ، فكم هي بحاجة إلى مثل هذه الدراسات لتعينها على تربية أولادها وإعطاء جو من الانسجام والتعاون في البيت . ثم تناولت بعده حصتها اليومية من أحاديث صحيح مسلم .. حتى دقت الساعة الثانية فأسرعت إلى المطبخ وأعدت المائدة ونسقتها حتى لم يبق

إلا وضع الأطباق الساخنة . وعادت إلى غرفتها فأصلحت هندامها ونسقت شعرها .. ارتفع صوت الطفلين .. بلال يصيح وسمية تبكي وتنادي : يا ماما .. أسرعت هناء بلهفة إلى غرفتهما .. كان الطفلان يتجاذبان الدمية التي انخلعت رجلها وتمزق طرف ثوبها .. هتفت :

ـ لا يابلال.. دع الدمية إنها لأختك..إنك تكاد تتلفها..!

ترك بلال الدمية وضرب الأرض بقدمه وصاح محتجاً :

ـ لكن سمية قد أفسدت لي سيارتي التي تعبت في تركيب قطعها ..

أجابت سمية من بين دموعها :

ـ والله يا ماما تعثرت بها بدون قصد ..

صاح بلال محتجاً :

ـ ولماذا مررت من فوقها ..؟

نظرت سمية برقة إلى أمها وقالت :

لقد نامت الدمية فحملتها إلى فراشها بهدوء حتى لا تستيقظ فلم انتبه إلى سيارته .

ثم عادت تنظر إلى دميتها بلوعة وتقول باكية :

ـ لقد أيقظها وخلع رجلها ومزق ثوبها ..

أحاطت هناء الطفلين بذراعيها وقالت :

ـ اسمعا .. لا فائدة من الصراخ والبكاء ولنسرع في إصلاح السيارة والدمية ثم نحل المشكلة بعد ذلك .. خاصة وأنني سأحكي لكما حكاية ظريفة ريثما ننتهي من إصلاحهما .. ولنبدأ بدمية سمية فإنها تبدو مسكينة بهذا الشكل ..

هدأ الولدان أمام هذا الاقتراح المغري وأسرعا يتعاونان على إصلاح اللعبتين ، وجلست هناء أمامهما تخيط ثوب اللعبة وتقص عليهما حكايتها :

ـ التقى تيسان في طريق جبلي ضيق .. هل تعرفان التيس ؟

ـ نعم لقد رأينا صورته .. هذا الذي يشبه العنزة وله قرنان ..

ـ عظيم .. أحسنتما .. ولما كانت الطريق لا تتسع إلا لواحد منهما .. وكان كل منهما حريص على أن يمر هو، وأن على الآخر أن يخلي له الطريق فقد تشاجرا ثم تناطحا بقرنيهما .. حتى تدحرجا من الجبل على الصخور . وبعد قليل التقى طفلان طيبان مثلكما على الطريق الجبلي نفسها .. فوقفا يفكران كيف يستطيع كل منهما أن يمر في طريقه وبعد قليل هتف أحدهما :

ـ لقد وجدت الحل .. سأجلس على الأرض وتمر أنت من فوقي .. وهكذا استطاع الولدان الذكيان الطيبان أن يتابعا سيرهما بسلام ..

ضحك بلال وسمية بفرح ونظر كل منهما إلى صاحبه نظرة حب واعتذار .. هتفت هناء :

ـ والآن .. لقد حان وقت عودة بابا . فهل نسيتما شيئاً ؟

أسرع بلال جذلاً وهو يقول :

ـ أنا أنتظر بابا على الشرفة كالعادة لأفتح له الباب .. وهتفت سمية :

وأنا سأجمع زهرات الياسمين المتساقطة في شرفتنا لأزين بها المائدة .

وطال انتظار بلال على الشرفة .. لقد مضت ساعة كاملة عن موعد قدوم صالح إلى البيت .. وظهر القلق على وجه هناء.. ما الذي جرى يا ترى ؟ ليس من عادته أن يتأخر بهذا الشكل .. ولو كان لديه عمل إضافي لأخبرها منذ الصباح .. وأطل وجه الصغيرين يتساءلان ؟.

ـ ماما .. لقد تأخر بابا كثيراً .. !!

ابتسمت هناء لهما وحاولت إخفاء قلقها كي لا تتأثر هذه القلوب البريئة وتتعكر : لا بد أن أعماله كثيرة اليوم .. لكنه قد يأتي في أي لحظة .فانتظراه في الشرفة ولا تتركاها ..

وبدأت الوساوس تجتاح قلب هناء .. هل أصابه مكروه؟ واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ورفعت وجهها إلى السماء ضارعة إلى الله أن يحفظ زوجها وأولادها من كل سوء ..

خرج صالح مع أبي سعيد يلاطفه ويسأله عن حياته وبيته وأولاده .. فاستأنس أبو سعيد باهتمام صالح وانطلق يحدثه عن حياته وهمومه منذ أن ترك قريته في صباه رغبة في بريق المدينة .. وليته لم يفعل .. فقد طحنت المدينة أكثر أولاده .. ولم يبق له سوى اثنين يخاف عليهما من (أولاد الحرام) ويحمل همّ رعايتهما .. فعرض صالح عليه مساعدته في توجيه ولديه وحمايتهما من الانحراف إلى المفاسد .. فتهلل وجه أبي سعيد مرحباً بالفكرة وأخذ يدعو لصالح بكل خير .. وهكذا توجه صالح مع أبي سعيد ليتعرف على مكان بيته .. عاقداً العزم على تخصيص موعد أسبوعي يقوم فيه بزيارة عائلية لأسرة أبي سعيد .. إن هناء يعتمد عليها في تدبير الموضوع كله .. وكم سيسعدها أن تساهم في إنعاش أسرة وإحياء نسمات الإيمان في قلوب أفرادها ...

لم تكن الطريق إلى بيت أبي سعيد سهلة .. فقد كان يقطن في (حارة) نائية في أطراف المدينة لا تصل إليها (الباصات).. وكان لا بد من قطع مسافة ربع ساعة سيراً على الأقدام بعد مغادرة الباص .

وفي الطريق اشترى صالح بعض الفاكهة وقدمها هدية لأولاد أبي سعيد الذين تهافتوا عليها فرحين .. وعاد صالح وقد ابتلت ثيابه من العرق وأوجعته حرارة الشمس .. لكنه كان

راضي النفس مطمئناً .. شيء واحد كان ينغصه .. لقد تأخر عن البيت كثيراً .. علاوة على أنه قد نسي أن يبعث بشيء من الخضار والفاكهة إلى البيت ... وعسى أن تتصرف هناء بحكمة .. فكر في شراء بعض الفاكهة .. ولكن الباعة قد انصرفوا إلى بيوتهم .. ولكن حمداً لله .. ها هوذا آخر بائع بطيخ يضطجع تحت خيمته .. فاشترى منه بطيخة وتوجه إلى الحافلة فركب.. كان الازدحام قد خفّ ومع ذلك فلا مكان للجلوس .. الوقت يمضي ثقيلاً .. قد أضناه الحر والتعب .. لكنه نسي تعبه عندما رأى امرأة عجوزاً تقف بين الواقفين .. تفحص وجوه الجالسين من حوله فرأى عن يمينه فتى توسم فيه البراءة والطيبة .. فنادى المرأة بلطف وهو يشير بيده إلى الفتى :

ـ تعالي يا خالة .. إن هذا الأخ الطيب يريد أن يعطيك مكانه ..

هبّ الفتى من مكانه وقد احمرّ وجهه حياء .. ربت صالح على كتفه مبتسماً وقال :

ـ بارك الله فيك ..

ابتسم الفتى برضى .. وجلست المرأة وهي تدعو له بالخير ..

كانت هناء قد قررت أن تخرج لتتصل هاتفياً بدائرة عمل صالح من أقرب هاتف .. فقد يكون هناك في عمل إضافي طارىء

فتطمئن عليه ، وفي اللحظة التي بدأت فيها ترتـدي جلبابها ..
سمعت بلالاً يهتف وهو يركض باتجاه الباب :

ـ جـاء بابا ..

طفرت الدموع من عينيها وهي تهمس : الحمد لله ...

ردت جلبابها إلى مكانه وأسرعت إلى الموقد فأشعلت النار تحت الطعام واتجهت نحو الباب .. وابتسمت إذ رأت سمية الصغيرة قد سبقتها وهي تحمل (شبشب) أبيها .. كان بـلال قد فتح الباب وأسرع يهبط درجات السلم وهو يهتف جذلاً :

ـ بابا .. بابا .. استقبله صالح ببسمة عريضة وهو يقول :

ـ لا ترفع صوتك هكذا يا بلال .. لا تزعج الجيران .. فالوقت وقت راحة .. قل لي يابني هل تذكر ماذا قال الحكيم لقمان لابنه في رفـع الصوت ؟

هتف بلال وقد خفض صوته :

«واغضض **من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** » .

ـ رائـع يا بلال .

دخل صالح وهو يلقي السلام .. رحبت به هناء وحملت عنه البطيخة وعيناها تلاحظان وجهـه المتعب وثيابه المبتلة مـن العرق .. وقالت بلهجة سعيدة فيها عتاب :

ـ أعانك الله يا أبا بـلال .. لقد شغلت عليك كثيراً .. ورجوت الله أن تكون بخير ..

نظر صالح إليها .. وجهها يتألق صفاء .. وعيناها باسمتان عاتبتان مخضلتان ببقايا دمعـة .. اهتز قلبه بعواطف جمة .. إنه سعيد مزهو بمكانتـه في قلبهـا .. معجب بهدوئها وحكمتها وحلاوة لقائها .. متألم لما عاناه قلبها الرقيق مـن القلق بسبب تأخـره ..

قال برقـة :

ـ آسف يا عزيزتي لانزعاجك .. لقد أخطأت معك اليوم مرتين ..

وهنا أحس صالح باليدين الصغيرتين تحتضنان رجليه .. إنها سمية الصغيرة التي طـال انتظارها ولم ينتبه إليها أبوهـا بعد .. أدرك صالح ما وراء حركتها من عتاب رقيق .. فحملها بين ذراعيه وقبّل وجهها بحنان.. ابتسمت جذلى وأشارت باصبعها إلى (الشبشب) على الأرض .. فأنزلها إلى الأرض قائلاً :

ـ أنت عظيمة ياأم عمار..لا تنسين (شبشب) بابا أبداً ..!!

خلع حذاءه وتابع حديثه مع ولديه :

لقد جعتما كثيراً أليس كذلك .. هيا بنا إلى المطبخ ..

كانت هناء قد سبقتهم . .وعندما دخل صالح كانت المائدة جاهزة ورائحة الطعام مغرية .. هتف :

ـ يلسلام .. أكلة لذيذة .. سلّم الله لنا هذه الأنامل ..

التفتت إليه باسمة وقالت :

ـ لعلك تحمد الله على نسيانك الوقوف على الخضري ..

ضحك صالح .. فتابعت :

ـ ألا تخبرني ما قصتك اليوم ..؟

ـ سأفعل ولكن انتظروني دقائق ريثما أغتسل وأبدل ثيابي فإن منظري ورائحتي لا تسر ..

وعندما عاد صالح إلى المطبخ كانت هناء قد انتهت من تقطيع البطيخة . وإذ رأى لون البطيخة باهتاً مائلاً للبياض ،قال بأسف:

ـ أهكذا تكملها البطيخة معنا و (تُسوِّد وجهنا) ..؟

ضحكت وقالت :

ـ (وجهك أبيض) بإذن الله .. هذه قسمتنا . ومن لم يذق البيضاء لا يعرف قيمة الحمراء .. والدنيا لا تكتمل لذتها .. لكن الآخرة هي خير وأبقى .. وضعتها في الثلاجة ، وجاءته بالشراب لذيذاً في طعمه وبرودته .. نظر إليها بامتنان شاعراً بعجزه عن التعبير عن حبه وتقديره ..

هتف الولدان : بابا غسلت يديّ ...

ـ عظيم تعالا إلى جانبي ..

تدافع الولدان وكل منهما يريد أن يجلس إلى جانبه الأيمن ... وطاشت يد بلال فرمت بأحد الأطباق الفارغة على الأرض فانكسر .. وهنا توقف الولدان ساكنين .. تنهدت هناء وهمت بالقيام لجمع القطع المكسورة ورميها . . فأشار لها صالح بالبقاء ،ونظر إلى بلال وسمية بحزم وقال :

ـ هل رأيتما نتيجة التدافع والصراع ..؟

قالت سمية : بابا .. هو الذي كسر الطبق .

احتج بلال :

هي دفعتني وأنا أكبر منها ...

قال صالح :

ولم التدافع ولدينا مكانان ... عن يميني ويساري ..

هتف كل منهما :

ـ أنا أحب أن أجلس على اليمين .

قال صالح :

حسناً .. بلال يجلس عن يميني وسمية في المقعد الآخر فتكون عن يمين ماما .. ولكن قبل أن تجلسا لابد من إصلاح ما أفسدتما ..

أسرع بلال يجمع قطع الصحن المكسور بالمكنسة ..وجاءت سمية بطبق بديل إلى المائدة..عاد الصفاء إلى الوجوه من جديد..

وأخذوا يتحدثون وهم يتناولون الطعام .. أخبرها صالح بماحدث معه اليوم مع جاره الذي شغله عن (الخضري)..ومع الآذن أبو سعيد .. حيث تأخر معه ليتعرف على مكان إقامته .

كانت هناء تستمع وعيناها تنضح بالحب والتقدير .وهمست بتأثر : كم أعتز بك يا أبا بلال ...

ـ وأنا بحاجة إلى مساعدتك في هذين الموضوعين ياهنائي.. وضحكا ..

كان الولدان قد شبعا فيما يبدو وبدأت عيونهما بالذبول .. قالت هناء :

ـ أتعلم ياعزيزي أن الأولاد بشوق إلى جدتهم أم صالح ؟ ألم ترها بعد أن زرناها آخر مرة ..؟

ـ مع الأسف لم يتيسر لي ذلك فقد شغلت بالتأقلم مع الدائرة الجديدة التي نقلت إليها .

قالت معاتبة :

أهكذا تمضي أربعة أيام ولا تتفقد والدتك ..؟!

ـ لقد اتصلت بها مرتين واعتذرت منها ووعدتها بالزيارة في أول فرصة تسنح لي ..

ـ حسناً..فلنذهب اليوم إليها جميعاً عند المساء .. إنني بشوق كبير إلى حنانها ..

كان صالح يعلم صدق هناء في كلامها .. بل إنه لا يصدق أن تجد الكراهية طريقاً إلى قلبها ضد أي انسان ...لكنه اصطنع الدهشة ونظر إليها متسائلاً :

ـ ليت شعري .. كيف تشتاق المرأة إلى حماتها ..؟!

ضحكت هناء من مزاحه وقالت للصغيرين :

أسرعا بغسل أيديكما قبل أن تناما ، فإن بابا قد وعدنا بزيارة الجدة العزيزة . قفز الصغيران بسعادة .. وسرعان ما هدأ البيت من ضجيجهما . وعندما أطل صالح يتفقدهما في غرفتهما .. كان بلال في فراشه ويده على مجلته .. وسمية في فراشها وقد ضمت دميتها إلى صدرها بحنان .. أحسّ صالح بجو ملائكي أخّاذ ، فانقلب إلى زوجته قائلاً :

ـ تعالي وانظري إلى أولادك إنهم كالملائكة في وداعتهم .

ابتسمت قائلة :

ـ أجل إنهما جميلان رائعان عندما ينامان .. أما عندما يتخاصمان ..؟

ـ وهل في الدنيا أولاد لا يتخاصمون ..؟!

سكت برهة . وعاد يقول جاداً :

ـ إنك لم تجيبي عن سؤالي ...كيف تحب المرأة حماتها..؟

ابتسمت ونظرت إليه :

ـ يكفي أن أشعر بأنها أم زوجي الغالي التي ربته وتعبت عليه ، ولهذا أحبها وأرغب في برها .. ثم إن حماتي ليست كالأخريات إنها طيبة الأخلاق والسجايا، كثيرة التضحية والحنان.. لم أر منها إلاّ كل خير ..

نظر صالح إليها ملياً .. وتذكر زميله المسكين جمال .. وأصحابه الهاربين من زوجاتهم..وأوضاع النساء في مجتمعه..فهزّ رأسه وقال بحرارة :

بل أنت لست كالأخريات يا هناء .. أنت ذات الدين التي أوصى رسول الله بالبحث عنها والحرص عليها ...

« فاظفر بذات الدين تربت يداك . » ..

بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد بحثت عنها وظفرت بها .

فمعها ينعم الرجل بالاستقرار ، ويتربى الأولاد في جو مليء بالحنان ومفعم بالمحبة ، يتذوقون حلاوة الإيمان وتتفتح قلوبهم الغضة على معاني الكرامة الانسانية ...

* * *

من اعمال المؤلفة :

سمية بنت خياط

تتحدث الكاتبة في هذه القصة عن أول شهيدة في الإسلام .. وكيف وقف التاريخ في بطحاء مكة ليسجل في صفحاته صورتين متقابلتين من صور الانسان :

ـ صورة الخِسَّة والاستكبار والعتوّ في الأرض ...

ـ وصورة الإيمان الذي يتحدّى العذاب ليُثبت للناس على مرّ الأجيال ، أن الإيمان أغلى من كل شيء .. حتى من الحياة ... وأقوى من كل مستكبر ... فقد زوّد القرآن المستضعفين بأنجح أسلوب :

« كلاّ لا تطعه واسجد واقترب » .

أم سليم بنت ملحان

تبرز الكاتبة في هذه القصة دور المرأة المسلمة الأولى في بناء المجتمع الربّاني ... وتبيّن أن المرأة لم تنحطّ إلى دور الدُّمية إلا عندما انحدر المجتمع المسلم من مرحلة العقل إلى مرحلة الغريزة ...

إننا عندما نعيش أحداث هذه القصة ، سنغبط الطفل الذي ينشأ بين أبوين مجاهدين .. إذ أنه يرى من إقدام أبيه وتضحيته مايملأ قلبه شجاعة ، وعقله سعة وإدراكاً .. ويرى من سعي أمه ونشاطها ومساهمتها الإيجابية،ما يلهب نفسه عاطفة طيبة نديّة ...

أضواء على سورة « يس »

أسلوب جديد في تناول الموضوعات القرآنية .. تبرز فيه الكاتبة دور كتاب الله تعالى في حياة البشر ، وأنه نزل ليكون حياة للناس .. هادياً لهم .. ينقذهم من الضلال .. من الهاوية .. إلى طريق الخير .. إلى الهدى .. إلى سعادة الدارين ..

إن الأداة الرئيسية في إنقاذ الناس ، هي تبليغ البشر آيات ربهم تبليغاً مبيناً ، إذ أن إعراض الأكثرية عن الحق إنما بسبب من جهلهم به :

« بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » .

وتبيّن لنا الكاتبة أن الصراع بين البشر عبر التاريخ إنما هو بين المستكبرين والمستضعفين .. وأن رسالة الأنبياء جميعاً تتركز على توحيد الله .. وأن البشر كلهم عباد لله فلا مستكبر ولا مستضعف ..

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

المحتوى

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٤
المقدمة	٥ ـ ٧
القصة الأولى	
اوهن البيوت	٨ ـ ٢٥
القصة الثانية	
بيت العنكبوت	٢٦ ـ ٣٥
القصة الثالثة	
طوبى للغرباء	٣٦ ـ ٥٩
القصة الرابعة	
ذات الدين	٦٠ ـ ١٠٠
من أعمال المؤلفة	١٠١ـ ١٠٢
المحتوى	١٠٣

من منشوراتنـا

أولاً ـ أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع :

تأليف : **الأستاذ جودت سعيد**

١ ـ مذهب ابن آدم الأول (مشكلة العنف في العمل الاسلامي)
٢ ـ الانسان حين يكون كلاً ، وحين يكون عدلاً .
٣ ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم .
٤ ـ فقدان التوازن الاجتماعي .
٥ ـ العمل قدرة وإرادة .

ثانياً ـ نظرات في كتـاب الله :

١ ـ قبس من الإعجاز **للأستاذ : هشام الحمصي**
٢ ـ أضواء على سورة يس **للأخت : حنـان لحام**

ثالثاً ـ مـن أخبار الصحابيات : تأليف : حنـان لحـام

١ ـ سمية بنت خياط (الشهيدة الأولى)
٢ ـ أم سليم بنت ملحان (الزوجة المؤمنة)

رابعاً ـ للبراعـم : تأليف : موفق سليمة

١ ـ روضة البراعم المصورة (١ ـ ٤) .
٢ ـ مسرحيات مؤمنة (١ ـ ٣) .

خامساً ـ للجميع :

١ ـ الادمان أقوى دافع اصطناعي
تأليف : دكتور نل بيجيرو
ترجمة : دكتور فاروق سيد عبد السلام

٢ ـ ميـلاد جديـد **تأليف : حنان لحام**

هذا الكتاب

ميلاد جديد . . مجموعة قصصية . . فيها صور من واقع الأسرة في مجتمعنا . . تعرضها الكاتبة بأسلوب جذاب ، يتَّسم بالجرأة والصراحة .

إن حُسْنَ الاختيار والتوافق بين الزوجين ، عاملان أساسيان في نجاح وهناء عش الزوجية . . والأسرة الناجحة هي التي يتأسس بنيان الحياة الزوجية فيها على تقوى من الله : ﴿أفَمَنْ أسَّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جُرُفٍ هار فانهار به . .﴾ .

بل من أسس بنيانه على تقوى من الله . . .